عشرة أيام في السودان

بقلم حضرة الكاتب الكبير

الدكتور
محمد بك حسين هيكل
رئيس تحرير جريدة السياسة

عني بنشرها
الياس أنطون الياس
صاحب
المطبعة العصرية
لصاحبها الياس أنطون الياس
سنة ١٩٢٦
(بالفجالة، بشارع الخليج الناصري رقم ٦)
(صندوق البريد رقم ٩٥٤ — مصر)

عشرة أيام في السودان

بقلم حضرة الكاتب الكبير

الدكتور
محمد بك حسين هيكل
رئيس تحرير جريدة السياسة

عني بنشره
الياس انطون الياس
صاحب
المطبعة العصرية
[illegible]
[illegible]

اهداء الكتاب

الى اهالى السودان

شكر وتحية م ؟

محمد حسين هيكل

مقدمة

ليس في هذا الكتاب شيء أكثر مما يمكن أن يشتمله عنوانه. فهو مجموعة ملاحظات ومعلومات جمعتها أثناء رحلتنا القصيرة بالسودان وهي قصيرة حقاً لأنها لم تتجاوز عشرة أيام فقد دعتنا حكومة السودان لحضور حفلة افتتاح خزان سنار بعد أن تحدد موعدها في اليوم الحادي والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٢٦. وغادرنا القاهرة مساء الثلاثاء ١٢ يناير فبلغنا حلفا في اليوم السادس عشر منه ومن هذا اليوم يبدأ مقامنا في السودان على نحو ما تحدده الاتفاقية الانكليزية المصرية وبعد أن قضينا أربعة أيام بالخرطوم غادرناها الى سنار فمكوار في مساء العشرين من يناير وعدنا اليها في صبيحة الثاني والعشرين من ذلك الشهر ثم تركناها الى حلفا في الرابع والعشرين وغادرنا حلفا وغادرنا حدود السودان في منتصف الليل الفاصل بين الخامس والعشرين والسادس والعشرين من يناير. فكان مقامنا بالسودان عشرة أيام على ما ذكرت وعشرة أيام أمد قصير لا يستطيع الانسان فيه ان يبحث ما يريد بحثه حتى يصل الى غور أعماقه، ولا يستطيع أن يلم الماماً صحيحاً بكل ما يقع تحت نظره كما لا يستطيع تحقيق كل ما يصل إلى مسامعه لكنه، مع ذلك

تسمح بالوقوف على كثير مما لم يكن للانسان به علم، كما تسمح بتحقيق كثير مما كان الانسان يتخيله تخيلا وربما كان لصحفي مثلي حظ لا يتاح لغيره يمكنه من الوقوف على كثير من الأشياء فالصحفي منظور اليه من الناس جميعاً على أنه كلمة الناس جميعاً. اليه يذكرون ملاحظاتهم وآراءهم ويبثون شكاياتهم وهمومهم ويبدون آلامهم وآمالهم ثم هم يتسابقون في إحاطته الى ما يطلب الوقوف عليه لعلمهم أنه سيذيع ذلك للناس جميعاً وفي طبيعة الانسان أن يعتقد أن آراءه الخاصة هي خير ما يصلح الناس وخير ما يتم به نظام الحياة ولذلك كان من حظي أن سمعت آراء كثيرين وملاحظاتهم وأن استطعت أن أكون لنفسي فكرة مما وقع عليه نظري واتصل به علمي

على أن ذلك ليس وحده هو الذي دفعني الى تدوين هذه الملاحظات والمعلومات التي وقفت عليها أثناء مقامي عشرة أيام بالسودان فلقد سافرت قبل اليوم الى غير السودان من بلاد مجاورة لنا يعنينا أمرها عناية كبرى وفكرت في ان اكتب شيئاً عنها ثم ترددت وانتهى بي التردد الى الإحجام وهذه سوريا اقرب لنا من السودان زرتها مرتين، أحداهما سنة ١٩١٤ والأخرى سنة ١٩٢٤، وأقمت فيها في كل مرة اكثر مما أقمت بالسودان، بل أضعاف ما أقمت بالسودان مع ذلك. ومع عناية المصريين بكل ما يدور في سوريا، لم أر ما يدفعني الى أن اكتب عنها مثل ما اكتب اليوم عن

السوداں . ولعل أكثر السبب في هدا راجع إلى أن لدي المصريين فكرة تكاد تكون صحيحة عں سوريا وأحوالها وما يدور فيها ،والى أن السوريين أنفسهم يكتبون عں بلادهم وعں أحوالها ما يزيد في الدقة على كل ما يمكں أن يكتبه سائح قضى مدة قصيرة في ر بوعهم ثم لعل ثمت سبباً آخر دلك أن بين مصر والسوداں رابطة طبيعية هي النيل ابو النعمة ومانح الحياة للبلاد المحيطة بواديه الضيق الخصب المتصل أوله بآخره بآثار التاريخ الخالدة على التاريخ هـذه الرابطة الطبيعية المتصلة بها حياة المقيمين على ضفاف النهر السعيد تجعل بين ابنائه من رابطة الأخوة ما إن عقوه يوماً فلں يزال رابطة تربطهم ويجب أن تنتهي الى خير ما تنتهي اليه مودة دوى القربى

ثم إں السوداں على متاخمته لمصر وعلى امتلاء قلوب المصريين باسمه وبذكره بعيد عں أں تكون منه في اذهانهم صورة مضبوطة فمنهم من يخاله بلاداً جرداء لا تصلح لمقام ولا يمكں أن تكون الا منفى لمں غضب عليه الأمر في ارض مصر ومنهم من يتوهمه مقام همج لا أمل فيه لرواج زراعة أو صناعة أو تجارة وكثيراً ما روى عنه الراوون أں أهله أشد الناس عداوة للسعي والعمل . وأنهم لا يريدون من الحياة الا بلغة تتيح الحياة ، فليس بهم الى مياه النيل من حاجة ،وليس في القوم بينهم باسم المدنية او التعمير سبيل ، هذه الافكار وما اليها من مثلها تروج في مصر ومنهم كثير فاسد أشد

الفساد وصار بالمصريين أنفسهم ابلغ الضرر فليس بد إذن من أن يكوّن المصريون لأنفسهم عن هذه البلاد صورة صحيحة بعيدة قدر المستطاع عن أن تلونها شهوات الساسة بالوان خداعة تغر أو تستهوى وهـذا ما حدا بي الى وضع مشاهداتى أمام نظر القراء لعلهم يجدون فيها ما يمكنهم من تكوين هذه الصورة الصحيحة .

ثم إن مسألة مياه النيل واولوية مصر التاريخية في الانتفاع بها ، وامكان توزيعها لتكفي مصر والسودان جميعاً إمكاناً فنياً ، وما قد يقوم فى وجه ذلك من عقبات سياسية ، وما تجنى هذه العقبات السياسية على حسن فهم المصريين والسودانيين بعضهم لبعض، وعلى إحتفاظ كل منهم إزاء أخيه بعواطف الاخلاص والمودة — كل ذلك جعلني أوجه حظاً كبيراً من همي ومن عنايتي الى هـذه المسألة الخطيرة التي لم تنج في مصر كما لم تنج في السودان من شوائب الشهوات السياسية ، والتي كانت وما تزال سبباً لنشر الدعوة التي تثـير بين المصريين والسودانيين العداوة والبغضاء

وسبب آخر يدعوني لوضع هـذه الرسالة ذلك اني بين من دعتهم حكومة السودان لشهود حفلة افتتاح خزان سنار كنت الكاتب المصري الوحيد الذي قد يعني بدراسة الحال هناك و بذكر آراء مستقلة تمام الاستقلال عن أن تشوبها شوائب الهوى والغرض . فان المصريين الذين دعوا لهـذه الحفلة كانوا أربعة اسماعيل

سري باشا وزير الاشغال وعبد الحميد سليمان باشا مدير السكك الحديد المصرية وهذان دعيا لما لهما من رأي سابق في مشروعات النيل وعلاقة خاصة بالخزان الذي دعي الناس لحضور حفلة افتتاحه. وقيل انهما دعيا بصفتهما العلمية وهما قد ذهبا من قبل الى السودان مرات ولهما في أمره آراء كثيرة منها ما له وزن وقيمة لكن مراكزهما الرسمية حالت وتحول دون نشر شيء من هذه الآراء بل دون نشر ملاحظات من أي نوع كان عن السودان وهما بعد لم يتخذا من الكتابة والأدب وسيلة لايقاف الرأي العام على ما يريدان أن يقف الرأي العام عليه، ولا يريدان طبعا اليوم أن تكون الكتابة مهنتهما

أما مندوب المقطم الذي دعي هو الآخر لشهود الحفلة فقد أقام بالسودان من قبل سبعة عشر سنة وله بأمره المام غير قليل وكان له فيه تاريخ مذ دخل فيه وخرج منه ولم يكتب عن السودان شيئاً

فكان لزاماً بعد ذلك كله أن أحصي لك بيت من الاسباب التي دفعتني لكتابة هذه الرسالة

* * *

ربما كان انفرادي بهذه الصفة يجعل ممكناً تسرب الخطأ الى ملاحظاتي وأفكاري ولو أن الذين دعوا من كتاب المصريين، صحفيين وغير صحفيين، كانوا أكثر عدداً لكانت ملاحظاتهم لا ريب

أكثر وأدق . ومثل هـذه الملاحظة أبداها المسيو السدريني الذي قام بجانب كبير من مشروعات الري على النيــل ، سواء في خزان اسوان ،أو فيما أقيم الى اليوم عند جبل الاولياء ،وفي خزان سنار نفسه، والذي دعي بهذه الصفة لحضور حفلة افتتاح هذا الخزان الآخير فقد تحدثت اليه ونحن في الطريق مابين حلفا والخرطوم فدهش حين علم انني أمثل الصحف المصرية العربية كلها وكان مرجع دهشته أن حكومة السودان كالحكومة المصرية يعنيها أن يقف الناس على حقيقة ما لمشروعات السودان من أثر على ثروة مصر وعلى ثروة السودان جميعاً ولا يكون ذلك بما تذيعه أي الحكومتين من نشرات يسهل طعن خصوم الحكومتين عليها وانتقادهم إياها نقداً قد لا يتفق مع الواقع في شيء ،وقد يسهل تفنيده لمن رأى السودان نفسه وإنما يقف الناس على الحقيقة مما ينشره الذين يرون هذه المشروعات رأي العين وتتاح لهم فرصة سؤال ذوي الشأن ومن باشروا العمل عن أثر هذه المشروعات وما يمكن أن ينجم عنها من ضررٍ لمصر وعن وسائل اتقاء هذا الضرر

وكلما تعدد الذين يرون هذه المشروعات ويرون السودان كله ويبدون رأيهم فيما وقع تحت انظارهم استطاع الجمهور أن يقف على الحقيقة بعيدة عن كل تزيين أو تزييف

على أن انفرادي بهذه الصفة جعلني اشعر بثقل حمل الواجب الملقى على عاتقي فسعيت بكل ما لدي من جهد لأرى ولأسمع ولأحقق ولأصل الى الفكرة التي اقتنع بصحتها في كل مسألة اتعرض لها ولذلك لم أقف من ملاحظاتي عندما جمعت في عشرة الأيام التي أقمت بالسودان بل جاهدت لامحص هذه الملاحظات بمناقشة من ذهبوا الى السودان ومن أقاموا فيه من المصريين ومن غير المصريين . وكل غايتي من هذا التمحيص أن يكون القليل الذي اعرضه في هذه الرسالة أمام نظر القراء أقرب ما يكون للواقع وللحقيقة

ويجب أن أنبه القارىء الى أني توخيت غاية الصراحة فيما سيقرأ لم ارع ما قد يرعاه مشتغل بالسياسة مثلى من المجاملات ولم اسع لتمليق إنسان أو جماعة ولم أتقيد برأي سياسي أو غير سياسي . وإنما سلكت هذه السبيل لاعتقادي التام بأن الموازنة كثيراً ما ينشأ عنها الخطأ وإذا اخطأ الناس في تصور شيء لا وسيلة عندهم لى تحقيق رأيهم فيه لبعده عنهم بعد السودان عن مصر كان عسيراً بعد ذلك أن يتغير رأيهم ثم كانت الخطة التي يسيرون عليها مترتبة على هذا الخطأ داعية التورط في ضلال لا ينشأ عنه الا فسد في السيسة واضطراب في النظام

وقد رأيت أن أضع فيه بعض الخرائط والرسوم والصور لأن كثيراً من المواقع التي ورد ذكرها في رسالة ليس ثم يتعدد التلاميذ

والطلاب ولا مما يرصد على الخرائط المتداولة، كما أن الصور قد تفسر ما لا تستطيع الكتابة تفسيره

وكل ما أرجو التوفيق اليه أن أوقف القراء عامة وبني وطني المصريين خاصة على شيء من صورة هذا السودان الذي يشاركنا في الآمال والأماني لأنه وإيانا يعيش على ضفاف النهر العظيم المحسن ، وأن أوضح أموراً عبثت عليها الأهواء ، وان أدل قومي على منزلتهم من السودان ومنزلة السودان منهم ،وما يجب أن يكون بين المصريين والسودانيين من صلة وعلاقة فان وفقت الى ما اليه قصدت فذلك خير ما ابتغي وإن اخطأني التوفيق فقد قمت بمجهود شعرت واجباً على أن أقوم به وفي اداء الواجب لذاته غبطة للنفس كبيرة



من مصر الى الخرطوم

يعرف اكثر القراء الطريق من القاهرة الى الاقصر وهي ككل سكك حديد الحكومة المصرية[1] وقد قطعناها ليلاً ثم انتقلنا الى الخط ما بين الأقصر والشلال وما يزال هذا الخط ضيقاً وعرباته على صورة غير صورة عربات سائر سكة حديد الحكومة المصرية وفيها من أوجه الشبه بعربات سكة حديد الدلتا أن عربات الدرجة الواحدة لا تتشابه فبينا احداها في نظام كنظام العربات العادية في سكة حديد الحكومة اذا الأخرى فيها كنبات طويلة والى جانب الكنبات كراسي من القش، وبين بعض هذه الكراسي والبعض الآخر مناضد أعدت للكتابة أو للعب الورق أو لتناول الطعام عليها واحسبها تستعمل لهذه الغاية الأخيرة اكثر مما تستعمل لأية غاية أخرى فأكثر المسافرين بين الاقصر والشلال يأخذون طعامهم معهم وان كان بالقطار عربة أكل تابعة للشركة الدولية فيها مثل طعام سائر عربات الشركة

ولعل الخط ما بين الاقصر والشلال شر خطوط سكة حديد الحكومة وفساده لا يقف عند سوء عرباته بل هو يتسير حول

---

(١) تجد طريق ما بين مصر والاقصر وصفاً في كتاب (في اوقات الفراغ)

المسافر عليه من الغبار ما لا مثيل له في أي خط آخر ، ولا في خط مصر المنصورة عن طريق بلبيس وهو لذلك غير محتمل في الصيف بحال روى لنا أحد الذين كانوا على اتصال بمن يعملون في بناء خزان اسوان ان بعض المسافرين في عربات الدرجة الثالثة على هذا الخط اثناء الصيف لم يطيقوا الحر والغبار معاً فاختنقوا وماتوا

ولقد فكرت ادارة السكة الحديد في مد الخط الواسع من الاقصر الى الشلال فلعله بعد الفراغ منه وافتتاحه فى أوائل عام ١٩٢٧ ينقذ أرواح اولئك المسافرين بالدرجة الثالثة من الهلاك ويجعل المسافرين في الدرجتين الاولى والثانية اكثر راحة وطمأنينة

***

قام القطار الذي أقلنا من الاقصر في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والاربعين من صباح الاربعاء ١٣ يناير سنة ١٩٢٦ ولم يكن من المصريين المسافرين فيه قاصدين السودان غير عدد قليل من موظفي حكومة السودان أما الذين ذهبوا لحضور حفلة افتتاح خزان مكوار فكانوا حضرة صاحب السعادة عبد الحميد باشا سليمان ومندوب المقطم وأنا بالنيابة عن الصحافة المصرية العربية ولم ينب أحد عن الصحف التي تصدر في مصر باللغة الفرنسية . أما الصحف التي تصدر باللغة الانكليزية فناب عنها مندوب عن الاجبشيان غازت وآخر عن الاجبشيان ميل وكان معنا من الانكليز كذلك مراسل

التيمس ومندوب عن الافريكان وورلد كلف بأخذ الصور ومعه بعض مساعديه وسبقنا مراسل روتر بالاسكندرية نائبًا عن صحف لندن .
أما غير الصحفيين من الانكليز فكثير ، سافر بعضهم مع زوجاتهم وسافر الآخرون وحدهم ولم يسافر من جنسيات غير الجنسية الانكليزية — من غير الموظفين بحكومة السودان — إلا ثلاثة أشخاص لهم علاقة بناء خزان مكوار

* * *

يقع الطريق بين الاقصر واسوان في مضيق بين سلسلتي تلال ليبيا والعرب ، ويسير القطار شرق النيل في سفح سلسلة تلال العرب وتفصله عن سلسلة ليبيا في بعض الأماكن مزارع ضئيلة تتسع أو تضيق على ما تريد التلال المحيطة بها ويبعد النيل عن القطار أحيانًا فيجعل المزارع بينهما وقل أن ترى المزارع بين القطار وتلال العرب ويصل الضيق بالمزارع في بعض المواقع حتى لتشعر بالسلسلتين في اقترابهما وليس بين احداهما وبين النهر إلا دهليز ضيق محصور بالتلال تارات ، أجرد لا زرع فيه أخرى فاذا كانت اسنا رأيت نشاطًا غير الذي رأيت ، وأحاط بالقطار من الاهالي باعة السلال المصنوعة من الخوص وأطفال يتجرون بفاكهة البرتقال واليوسف افندي

فاذا بلغت كوم مبو رأيت حصنًا وبناء لم يكن لك منذ الاقصر

بهما عهد وقد يدهشك أكبر الدهشة كيف تترك آلاف الأفدنة مما يحيط بالنيل إلى الخصب جرداء لا زرع فيها ولا نماء اذا أمكن أن تنتج هذه الأراضي مثل ما تنتج أراضي كوم امبو ولمَ لا تعني الحكومة المصرية بتشجيع الاهالي على استغلال هذه الأراضي بدل تركها عامرة يرضى المقيمون عليها بما يتبلغون به من شعير وما يرد اليهم من ذويهم القائمين بالخدمة في المدن من أرزاق

تعود الأرض عامرة بعد كوم امبو الى اسوان فاذا بلغها القطار غادره كثيرون من الاجانب الذين قصدوا الى هذا المشتى البديع، وهم بين شيخ جاء يرجو في أشعة الشمس المحسنة بعض معاني الصبا والشباب، وعليل يمشي في مناكب الأرض يبتغي الصحة، وحسناء تصحب هذا الشيخ أو ذلك العليل يغريه حسنها ورقتها عن شيبه أو علته، وترى هي في اداء الواجب لهذا العزيز شبه السقام شيئاً من رضاء النفس يعوضها عن المدن وبهجتها، وترى في هذه الشمس الساطعة والطبيعة القليلة التغير ما ينسيها تقلب القلوب وأكاذيب الألسن وظلمات النفوس التي طالما خدعتها باللفظ المعسول والى جانب هؤلاء الفارين من المدن وأمراضها وآلامها ولؤمها قوم اتسعت ثروتهم عن أن يؤدي ركن ضيق من الأرض طلبات أهوائهم وتهوساتهم فجعلوا من السياحة والتجوال وسيلة لترييض النفس وعزاء من هموم الاقامة

ثم يقطع القطار ما بين اسوان والشلال ليبلغه في منتصف الساعة الخامسة من المساء ، وهو في هذا السبيل يعود أدراجه رمثاً ثم ينطلق الى الشلال يقد صخوراً وصخوراً من الحجر ومن الجرانيت نحتت منه مسلات الفراعنة الأقدمين وتماثيلهم وأقيمت منه معابدهم وآثارهم ، وهو ما يزال الى اليوم تنحت منه التماثيل وتتخذ منه القواعد لولا أن أصبح فن الفراعنة أثراً من آثارهم

على أن هذه الأحجار التي شهدت لمصر مجداً كما تشهد لها اليوم همًّا ستبقى ليكون منها للمجد المستقبل نصب وتماثيل تخلد على الزمن ما خلدت نصب الفراعنة وتماثيلهم

بين هذه الصخور مطار للطيارات البريطانية كان فيه طيرتان غادرتاه قبيل وصولنا وعلمنا قصدتا إلى حلفا في انتظار مستر بريطانيا السامي الذي يقوم مقام الحكومة البريطانية في حفلة افتتاح خزان سنار

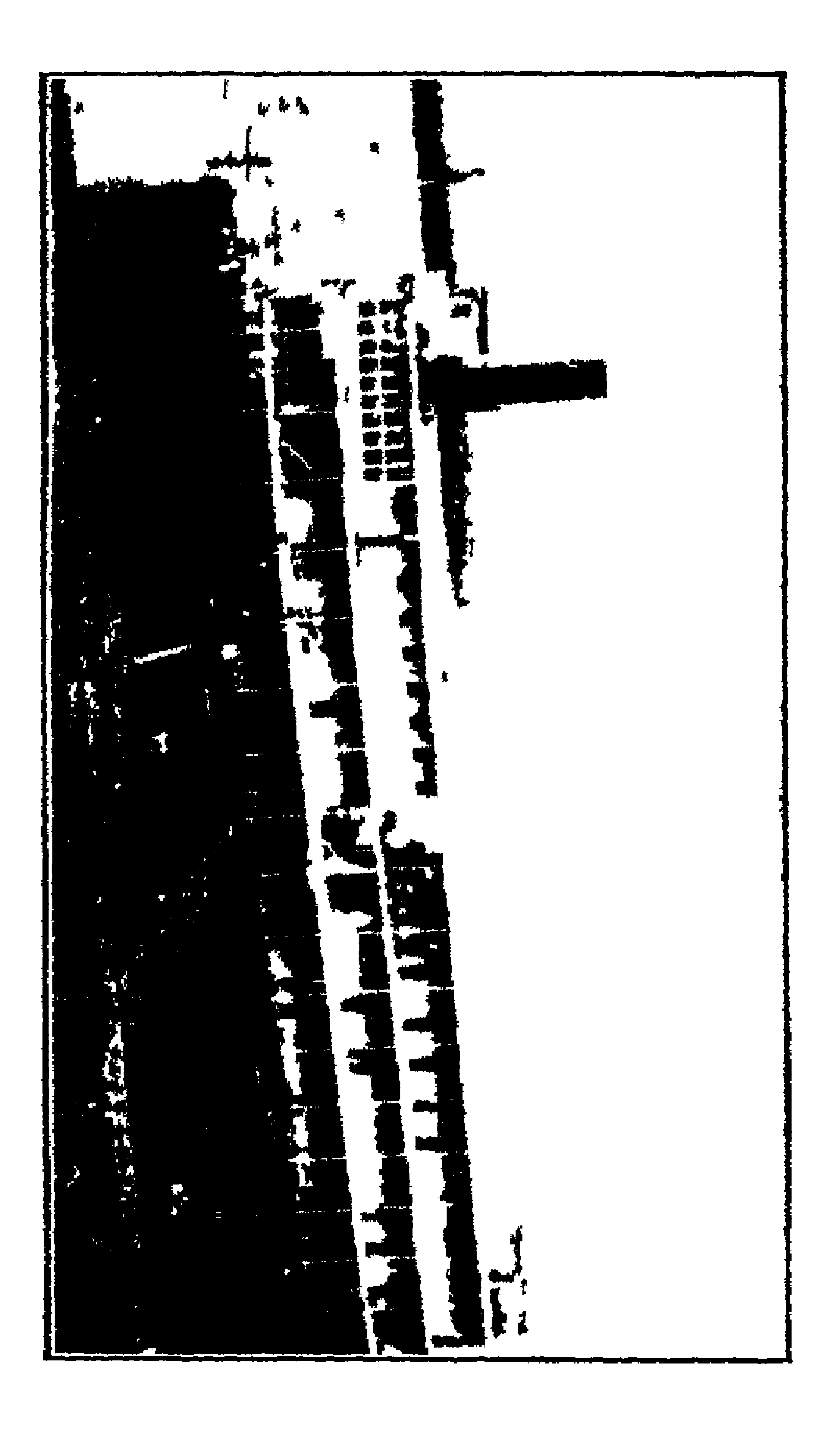
وبين هذه الصخور تبحث الحكومة المصرية عن خير مكان لاقامة معسكر للجنود المصرية بعد أن جاءت من السودان فهل يمكن أن يكون هذا المعسكر واسطة تصل بين مصر والسودان يعسكر فيه جيش واحد من البلدين وينتقل منه الى مصر أو في السودان على ما ترى حكومة البلدين ? لعل ذلك يكون قريباً

ويبدأ القطار يسير الهوينا يحيط به النيل وقد اتسع مداه بعد ما حجر خزان اسوان مياهه ، ويظل كذلك بضع دقائق ينتهي بها الى محطة الشلال حيث تنتظره الباخرة « بريطانيا » التي أعدت لنقلنا ونقل المسافرين معنا إلى حلفا (انظر صورتها في الصفحة المقابلة)

***

الباخرة بريطانيا باخرة نيلية بيضاء طريفة في مظهرها ومخبرها . وهي من بواخر حكومة السودان وكل البواخر التي تقل الركاب بين اسوان وحلفا عدا بواخر كوك وبعض الشركات الانكليزية الأخرى تابعة لحكومة السودان ولذلك كانت حكومة السودان هي التي تتقاضى اجور الركاب وتقوم بنقل البريد والبضائع وكانت الطوابع التي تباع على بواخرها من طوابع حكومة السودان بل أن بين اسوان وحلفا بعض آثار كوادي السبوع وآماد أبو حماد وأبو سنبل وحكومة السودان هي التي تتقاضى رسوم الدخول الى هذه الآثار . هذا كله مع أن ما بين اسوان وحلفا هو مركز الدر أحد مراكز مديرية اسوان وداخل في الحدود المصرية وليس من المسافة التي تقطعها بواخر حكومة السودان إلا بضع كيلو مترات لا تزيد على العشرين واقعة بحري حلفا هي المعتبرة عند حكومة السودان نفسها داخل حكومة السودان

وما أشبه سير بواخر حكومة السودان في مياه مركز الدر بسير



الباخرة رسايا

سكة حديد فلسطين في شبه جزيرة سينا والسودان كفلسطين واقع تحت النفوذ بل تحت الحكم الانكليزي والسياسة الانكليزية ترى — وقد يكون لها الحق في رأيها هذا — أن كل أرض أهملها صاحبها أو أظهر عدم العناية بها والرضى عنها يجب أن يقوم على استغلالها من يعرف وسائل هذا الاستغلال وسكة حديد فلسطين تستغل شبه جزيرة سينا وبواخر حكومة السودان تستغل مركز الدر فلتتبع سينا فلسطين وليتبع الدر السودان ولتقف حدود مصر عند قناة السويس شرقاً وعند شلال اسوان جنوباً ومن يدري إذا كانت السياسة البريطانية لا ترمي الى هذه الغاية !

على أن الاحتياط لذلك يسير فليس ما يمنع الحكومة المصرية من أن تسير بواخر بين اسوان وحلفا كما تفعل حكومة السودان وكما تفعل الشركات المرخص لها من الحكومة المصرية وما تقوم به ادارة سكة الحديد المصرية في الوقت الحاضر من توسيع الخط بين الأقصر واسوان وما يرجى بعد هذا التوسيع والسعي لراحة الركاب والسائحين من زيادة السياحة الى جهات مركز الدر يجعل تسيير هذه البواخر النيلية المصرية واجباً لا يصح التهاون فيه ، فان قليلاً من العناية باستغلال هذا المركز وزيادة موارده وتحسينه يجعله مورداً اقتصادياً لأهله ولمصر من خير الموارد ذلك بأن مركز الدر في نظر من لا يرى إلا الوقت الحاضر ، مركز فقير غاية الفقر ، تنحدر

حال السلسلتين عنده في النهر مباشرة ومن وراء الجبال صحاري غير ذات زرع لكن مركز الدر هو خزان اسوان وهو فوق هذا حصن بديع يفصل بين ما يقع شماله وما يقع جنوبه وهو لذلك من خير مراكز مصر ويجب أن يكون من أعزها عليها ويخيل إلي أن من غير المستحيل استغلاله على صورة تجعل الحياة فيه أكثر رغداً ونعمة

وهو بعد مشتى لا مثيل له وأنت كلما انحدرت الى ناحية الجنوب منه وجدت جواً أصح من نواحي الشمال فيه ووجدت سماء صفواً تلمع نجومها فتضيء في الليالي التي لا قمر فيها حتى لتحسبها مصابيح الكهرباء تدلت إلى السماء بخيوط من نور الأمل الساحر. وهي شديدة البريق تبعث الى ظلمة الليل العبوس ما يزيل عبوسها ويجعل سكينتها تملأ أفئدة المحدقين بالنجم اللامع بمعاني الطرب والجذل أما الجبال المحيطة بالنهر فهي وإن كانت على أمرها جرداء إلا انها في تجردها باسمة أبداً وكأنها تنبه بما وراءها من مخلفات الماضي المجيد بآثار الفراعنة زاد بعدهم والتي جمعت معنى يحدثك أن ليس اليوم مما كان لحضارة العصور القديمة من ... التي تجر أمامها آثار الحضارة الحاضرة ساجدة، وبقايا من آثار الرومان الذين عبروا الوادي فلم يبق من آثارهم إلا بقايا لا تنطق بمعنى ولا تنم إلا عن غدر الدهر وعن سلطانه الآتي

وقد يدهشك قيام هذه الآثار المجيدة من مخلفات الماضي وراء خزان مركز الدر القفر القليل النبات. لكن دهشتك تزول إذا ذكرت أنه كان أكثر نباتاً ونماء قبل أن تغمر مياه النيل أرضه بعد ما قام خزان اسوان فيه، وإذا ذكرت إلى جانب هذا أنه كان ولن يزال حصناً قوياً يدرع به الملوك ذوو الأيد إذا اغار عليهم مغير أو ثار بهم ثائر. فخزان مركز الدر تتحكم فيما حولها خير تحكم تتحكم في النهر وفي السهل وفي الصحراء. ثم هي بعد خزان من صخر صلد لا يرتفع الماء الى عليائه ولا سبيل الى مسراه من خلاله فلا خوف من أن يغير النهر على آثار أعدها أهلها لحياة الخلد وبقاء لا يبلى.

عرفت بريتانيا بعد غير واحد من هذه الآثار الخالدة. عرفت عند وادي السبوع وأماد وابو سنبل وغيرها. وهي جميعاً مظاهر من هذا الفن القديم الخالد على تفاوت في العظمة والقوة وفي الدلالة على المجد والسطوة. وابو سنبل هو بين آثار مركز الدر أكثرها عظمة وقوة ومجداً وسطوة. وناهيك بمعبد أقامه رمسيس ليكون واحدة من آيات خلده. وكان رسو السفينة عند أبو سنبل في منتصف الليل فمدت اليه اسلاك الكهرباء ليرى السائح ابن اليوم نقوش أجداد الانسانية الخالدين على ضيائها اللامع. فمعبد ابو سنبل يخفي مكنون سره عن العيون الا لحظة من نهار في بعض أيام السنة. تلك لحظة مشرق الشمس عند استواء الفصول. في هاته اللحظة

تمتد أشعة اله طيبة والمصريين فتحيي ، لحظـة بروعها منتصرة على حيوش الظلام ، تمثال رمسيس الخالد الجالس على عرشه منتصراً على حيوش الخيانة والعدر . أما فيما سوى هده اللحظة فيحتي ما يطوي عليه المعبد وجدرانه في حجب العيب وحلاله وناهيك بجلال العيب من حجاب وكذلك طل هدا الأثر حتى امتدت الأيدي الآثمة باسم العلم تكشف النقاب عن هدا الجلال بضياء المصابيح والكهرباء على انها حين كشفت عنه لم تكن أمام عظمته وقوته وأمام سلطانه وسطوته أقل سحراً و بهراً

و بهدا الجلال المطوي في حجب العيب تحيط جدران معبد ابي سنبل وقد وقف أمامه تماثيل أربعة للملك العظيم كلها المهابة والجلال

* * *

أما وادي السبوع — وهو أقرب آثار مركز الدر الى أسوان — فيقوم فوق هضبة غير بعيدة عن النهر يتخطى الداخل اليه دهليزاً يحيط به آباء هول هي السبوع التي طفق سميه على الوادي عند أهل هده المنطقة من السذج الفدفعين بسعادة الطبيعة الساذجة وقامت داخل المعبد وفي ساحته تماثيل ذكت من عصر رؤوس وتحطمت من العصر سيقان وتلي ذلك حجر محوة بطلاسم متدسة وقد رسم على جدرانها من آيات ذلك زمن التدرب والخعرب والتعب وما اليها من آلهة تلك العصر مجيدة



رية وادي السبوع

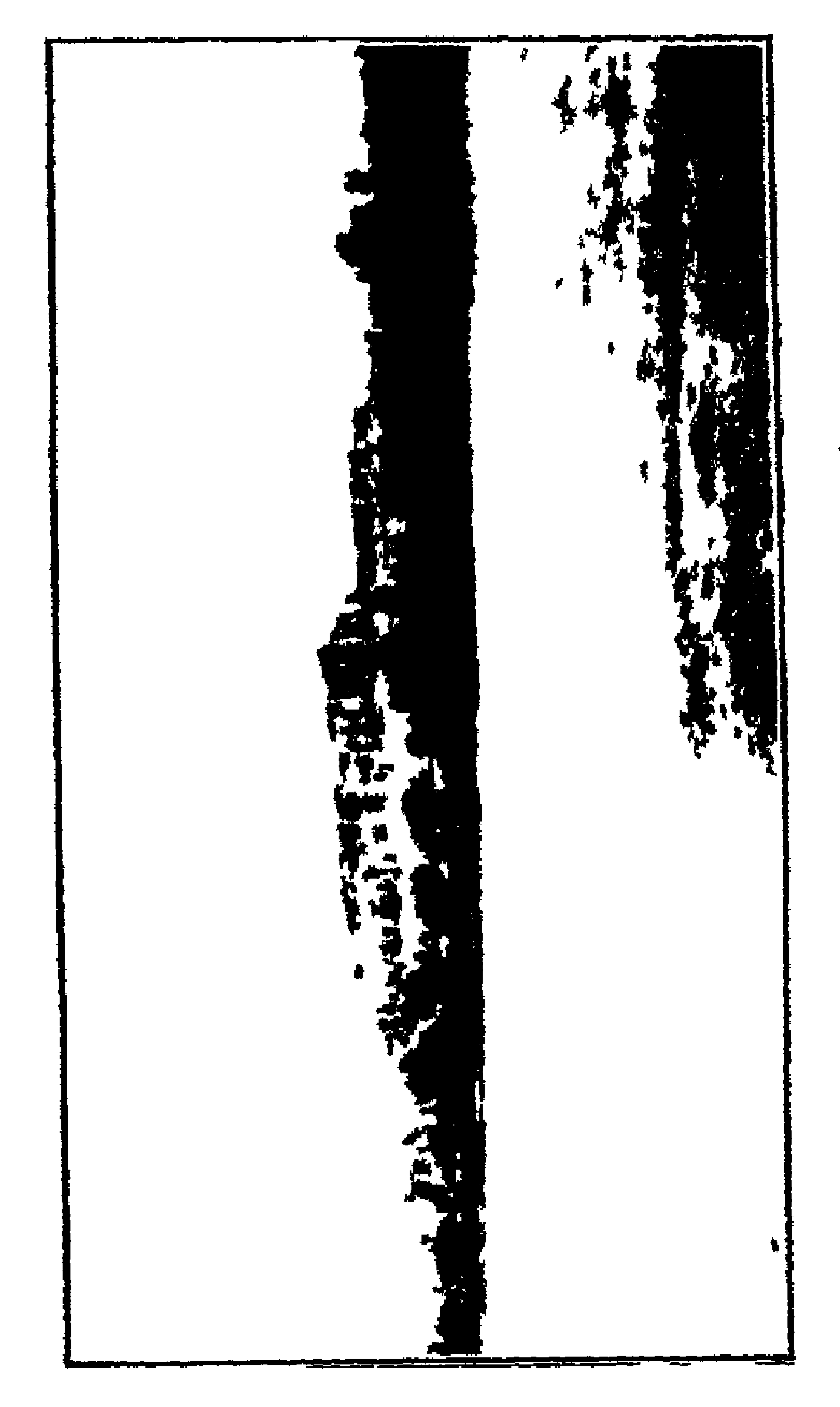
أما ما سوى هذين من الآثار فأقل منها جلالا وعظمة على أنها أبداً آثار العصور المجيدة تحدث احجارها ويحدث الرمل المحيط بها عما كان لأهل هاتيك الأزمان النائية من حضارة ومجد ، ويدعك وانت بين تلك التلال القائمة وسط الصحراء العامرة الجرداء غامر النفس بمعان قل أن تدور بخاطرك حين تشهد آثار هذا الزمن الحاضر الممتلىء بحضارته وبعلمه وبفلسفته غروراً

* * *

لو أن السبل يسرت للوصول الى هذا المشتى البديع ، ثم أقيم فيه من وسائل الراحة والنعمة ما يطمع فيه من يرغب في الاستشفاء ومن يفر من قارس قر الشتاء حيث الشتاء قاس قارس لأفادت مصر من مركز الفيوم كثيراً ولأفاد أهل هذا المركز من مصحهم الشتوي البديع ما يغنيهم من فاقة وما يجعلهم — وهم أهل أمانة ونشاط — قوى منتجة ذات اثر فعال في حياة مصر العامة

* * *

وانسابت الباخرة على هون تدفعها محركاتها فوق لجة النهر الهادىء الصافي وسارت تحيط بها شواطىء خضراء تارة مجدبة طوراً ويشتملها هواء رقيق متع به المسافرون فوقها كما متعوا بهذا الجو البديع الذي لا نظير له في مشتى من مشاتي العالم وبهذه الجنان الصغيرة



التلال والأشجار على شواطىء مركز الدر

الحرداء تارة والحصراء أحرى والمحاطة بالرمال الناصعة الاصفرار حيناً آحر ؛ وبالآثار المطلة عليا من القمم الصعيرة ترمق أبناء اليوم ترى هل بقي في رءوسهم أو قلوبهم أو افئدتهم أثر من عادة قدس الماضي المجيد فترى في نفس المصري حيناً يزداد أو ينقص بمقدار عادة الشخص وطبعه أو مجرد حرصه على ما يجنيه منه من فائدة

* * *

ها نحن أولاء الآن تقترب بنا الباخرة من حلفا ، فلم يبق بيننا وبين رسو الباخرة عندها الا دقائق وها تحيط بنا رؤية الشاطئين من نخيل وأعشاب وتلال ورمال وها هو ذا الماء ينساب الى جانب القارب على هون وفي هدأة وسكون والجو رقيق والسماء صفو والشمس شمس ربيع راه ، وحياة الوجود خضراء ناضرة ثم هذه حلفا عند مرمى النظر وها نحن أولاء في سلطان حكومة السودان بعد ما ظللنا في سلطان حكومة مصر الى ساعتين مضتا فهل نحن سنكون في بلد أجنبي ، أم نحن أبناء النيل ما نزال في وطن تحكمنا قوانينه كما تحكمنا طبيعته الجميلة الثابتة ؟

لما اقتربت الباخرة من رصيف حلفا أقبل علينا رجل فيه موظف أوراق الجواز الى السودان وطلب منه أن لا تدخل الى السودان أوتية من مصر وهما انكليزيين وكان أول ما عنت بعض المسافرين الذين جاءوا الى السودان قبل اليوم أن هذا الرجل

كان يرفع في الماضي العلمين المصري والانكليزي، أما في هذه المرة فلم يكن عليه الا العلم الانكليزي وقد أجاب انكليزي كان معنا بأن العلم المصري ما يزال يرفع في السودان، فعدم رفع الرصاص للعلم المصري لا بد أن يكون سببه ضيق المكان المعد لرفع العلمين عن أن يتسع إلا لعلم واحد قال رفيق والعلم المقدم هو بالطبع علم صاحب النفوذ الفعلي

* * *

وبرست بريتانيا عند حلفا، واستقبلنا جماعة من المصريين الموظفين في حكومة السودان بكثير من البشر والترحاب ودعانا أحدهم فتناولنا القهوة في بيته لكن هذا البشر كان مشوبا بشيء من الاحتياط. وهذا الاحتياط الذي لم يلجأ اليه المصريون إلا بعد خروج الجيش والموظفين المصريين من السودان آخر عام ١٩٢٤ سببه ما ادخل ذلك الى روعهم من خشية أن هم تبسطوا مع المصريين القادمين من مصر كما كانوا يتبسطون من قبل أن يصيبهم ما أصاب غيرهم ممن طردوا من السودان طرداً ولعلهم في احتياطهم على حق، فهم أحوج إلى البقاء منهم الى الطرد ومصر بحاجة الى بقائهم حتى تحل مسألة السودان بيننا وبين الانكليز حل سلم واتفاق

وذهبنا الى القطار الذي يقوم من حلفا في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الجمعة ليصل الى الخرطوم في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم



شواطئ النيل على مقربة من حلفا

السبت فاذا به قطار أبيض واذا خطه ضيق كخط سكة الحديد ما بين الاقصر واسوان . لـكنك ما تكاد تدخل إلى عرباته وما تكاد تستقر في غرفة النوم المخصصة لك حتى تشعر بمعنى آخر غير شعورك حين دخولك قطار الاقصر — اسوان معنى النظام والنظافة والطمأنينة والراحة ويدهشك أن عربات النوم في هذا الخط الضيق اكثر رحبًا واستهواء من عربات النوم في مصر فمعدات الراحة فيها اكثر منها في عربات مصر سررها اكثر سعة وغرفهـا أرحب ، وبها مقاعد يجلس عليها الانسان حين لا حاجة به الى النوم وبها مروحة كهربائية ومنضدة صغيرة ودولاب صغير لاناء الماء وما قد تريده من لبن أو فاكهة هذا غير وعاء الغسيل النظيف اللطيف

تحرك القطار في الساعة الثانية وما كاد حتى ذهبنا نتناول غداءنا في غرفة الطعام وهي على مثال غرف النوم في كمالة الراحة والطمأنينة والطعام فيها مثله في البواخر النيلية أقرب للنظام الانكليزي في أصنافه والقائمون بالخدمة فيها كالقائمين بالخدمة في البواخر النيلية ، هم جميعًا من أهل البلاد لا تقع عينك بينهم على أجنبي يقوم بالرياسة عليهم وهم كزملائهم في مصر نظامًا ونظافة وأدبًا

ما يكاد القطار يترك حلفا (المعسكر) حتى ينطلق في (عطمور) أبو حمد وهذا العطمور رمال تمتد امام النظر غير الحاسبين حتى تلتقي بزرقة السماء الصافية عند الافق ويبتعد النيل عن سكة الحديد في

استدارته الكبرى ما بين حلفا وابو حمد وتسير سكة الحديد في خط مستقيم وسط الرمال مدى يزيد على ثلاثمائة كيلو متر . وفي هذا العطمور ينطلق القطار ماراً بمحطات لا يحيط بها إلا بناء المحطة وبيت الناظر ومساكن العمال وبين كل واحدة وما بعدها ما يزيد على ثلاثين كيلو متراً وبيت الناظر ومساكن العمال — أو تكلاتهم كما يسمونها في السودان — قد بنيت في شكل عجيب فقاعدتها جدران مستديرة من الطوب الأحمر ترتفع عن الارض مترين أو تزيد قليلاً وفوق ذلك قباء على شكل قباء الصيوان حتى لتكاد تحسبه صيواناً بالفعل لولا ما تنتبه بعد اقترابك منه من أنه بناء عتني بالجير الابيض . وهو على هذه الصورة أكثر اتقاء لسوافي الرمال ولما قد يندر أن تقذف به الصدفة من الامطار وحول بيت الناظر ومساكن العمال رمال العطمور فهم بذلك في وحدة دونها وحدة الناسك في صومعته . ويمر بهم قطار حلفا والخرطوم أربع مرات في الاسبوع ذهاباً وجيئة فيحمل اليهم أرزاقهم

ولما لم يكن حولهم من مظاهر حياة الانسان ما يدر لهذه الاماكن أسماء تذكر بحادث وقع فيها أو برحل أسس أول عائلة عمرتها أو بما سوى ذلك مما يبقى تاريخاً لمظهر من مظاهر الحياة الانسانية فليست لهذه المحطات اسماء تتصل بهذا التاريخ ولذلك اعتبرت نمراً تبدأ عند حلفا بنمرة واحد ، وتنتهي قبل أبي حمد بنمرة عشرة وعند نمرة ٦

يقف القطار طويلاً لتبديل القاطرة وللاتصال بماحم للذهب فى أم ساردى تقوم شركة انكليزية باستغلالها

لا وسيلة لقطع الوقت وهذا التشابه يحيط بك إلا أن تقرأ أو تتحدث الى من معك من المسافرين ، واكثر المسافرين معنا من الانكليز وهم على رقتهم وظرفهم اكثر اتصالاً فيما بينهم منهم بغيرهم ، على اني قضيت ما بعد العشاء الى منتصف الليل في حديث طويل مع المسيو السدريبي الذي قام على نحو ما سبق القول بأكثر أعمال خزان مكوار كما قام من قبل بقسط كبير من أعمال خزان اسوان

بقيت أتحدث والمسيو السدريبي حتى قاربنا منتصف الليل . وكان القطار ينساب سارياً في ظلمة الليل الداجي زاده ظلمة ما يحيط بنا من أنوار الكهرباء التي تحجب عنا ما قد يكون من التماع النجوم في السماء وسألنا الخادم عن الوقت الذي يصل فيه القطار الى العطبرة فاذا هو يصلها في الساعة السابعة صباحاً حينذاك قمنا الى مخادعنا يهزنا القطار حيناً فيطير النوم من أعيننا ويغلب النوم علينا حيناً فلا نحس باهتزاز القطار ثم انبعثت من خلال النوافذ تباشير الضياء وجاء الخادم بشاي الصباح وما كدنا نفرغ من تناوله ومن لبس ثيابنا حتى كان القطار قد بلغ العطبرة ليقف فيها ساعة كاملة

عند العطبرة تلتقي سكة حديد (حلفا — الخرطوم) بسكة حديد (بور سودان—كسلا) وفيها حركة كبيرة لسكة حديد حكومة السودان.

بها ورشة للوابورات كاملة النظام وبها كذلك عدد عظيم من الموظفين المصريين بل لعل أكبر عدد من الموظفين المصريين بالسودان هم المقيمون بالعطبرة لقينا جماعة منهم على رصيف المحطة برغم هذه الساعة المبكرة من الصباح فرأينا منهم هذا البشر الذي رأيناه من مصريي حلفا ، ومنهم علمنا أن المدارس الموجودة بالبلد لا تقوم إلا بشؤون التعليم الأولي ، وان خير مدرسة فيها تابعة للامريكان حيث يتعلم الطفل الى أن يبلغ ما يقابل السنة الثالثة الابتدائية في مصر ثم يرسل أهله به الى مصر ليتم التعليم فيها

أما أهالي البلاد فما تزال الحكومة تكتفي بتعليم بعضهم التعليم الأولي البسيط ليتخرجوا بعد ذلك وليقوموا ببعض الأعمال الكتابية وبعض أعمال فنية أخرى كالتلغراف وبعض أعمال سكة الحديد ونحوها

واكبر موظف مصري في العطبرة يتقاضى مرتباً ستة وثلاثين جنيهاً وهو وحده الذي يتقاضى هذا المرتب أما من يليه في الدرجة فيتقاضى سبعة وعشرين جنيهاً ويلي هؤلاء من دونهم في الدرجة من الموظفين

وقام القطار من العطبرة الى الدامر وعبر نهر العطبرة على جسر (كبري) متين حسن الشكل ونهر العطبرة صغير كان ماؤه

حين مررنا به غائصاً ومن بعده وقف بنا القطار في الدامر عاصمة بربر في هذه المنطقة وما بعدها تبدأ زراعة القطن على المطر لكنها هنا ليست متسعة النطاق وإن كانت تؤذن بازدياد مطرد ومن هذه المنطقة يسير القطار الى الخرطوم قريباً من النهر تارة ، بعيداً عنه طوراً ، مخترقاً صحراء جافة حيناً وهي أقرب الأشياء شبهاً بالعطمور ، ماراً بين أشجار متكاثفة أخرى ، محاذياً بعض المزارع ثالثة وفي هذه المزارع ترى القطن وغير القطن من أنواع الزراعة وترى الدوم والسنط وغيرهما من الشجر

* * *

لبثنا في القطار بين حلفا والدامر أكثر من ثماني عشرة ساعة وما يزال بيننا وبين الخرطوم ساعات ثمان ومثل هذه السياحة الطويلة في سكة الحديد تعيد الى الذهن سياحات طويلة مثلها أو أطول منها في أوروبا لكن بين هذه السياحة الافريقية والسياحات الاوربية فرقاً كبيراً فأكثر السياحات في أوربا تمر بك بين جبال رفيعة وسط جو سريع التقلب وطبيعة لا يحول عبوس الجو دون ابتسامها وأكثر السياحات في أوربا تخترق سويسرا أو غابة ألمانيا السوداء فتريك سفوحاً ناضرة يفوح منها شذا العطر ويبدو للناظر اليها جمال الزهر وهي بعد طبيعة لم تترك للطبيعة بل شارك الانسان الطبيعة في زينتها وفي جمالها فزادها زينة وجمالا أما هذه السياحة

الافريقية الطويلة فتحترق تلك الصحاري لا حد لهـا ولا نهاية وتشعرك بالوحدة المطلقة وسط الفضاء الصامت لا تسمع فيـه همساً ولا ترى فيه طيراً ولا حيواناً ولا ينبت في اكثره نبات ولا شجر وما انبت النبات والشجر فيبتهما وفي كل قطوب الصحراء وعبوس الجبال لا يقلل من عبوسهما الا جمال الطبيعة الدائمة الصحو . اقتربنا وقد تخطينا الغطيرة والدامر وأصبحنا يقف بنا القطار أو يمر على محطات ذات اسماء وذات تاريخ ويحيط بنا الوقت بعد الوقت شيء من الشجر قد صرنا الى منظر ذي بهجة يعوض ما مضى من عبوس وقطوب ؟

كان لنا في ذلك أمل لكنه سرعان ما تبدد وبقي لنا منه سراب هو هذه المزارع القليلة من القطن وهذه الغابات ترعى فيها الأبل ويجد فيها البدو لأغنامهم وماعزهم وأبقارهم مرتعاً على أن لهذا السراب بهجته ومن تلك البهجة أهل هذه المدن المستوحشة . فهؤلاء هم يقتربون من القطار كلما آوى الى احدى المحطات وبيد امرأة لبن رائب تبيعه وبيد غلام عيش يعرضه لمن به جوع ولعلك غير مستطيع وان وصفت لك هذا العيش أن تتصور ما هو فرغيفه صغير الحجم منتفخ لا تدري أهو من ذرة أم من شعير وغير اللبن الرائب وغير العيش يتجر بعض هؤلاء السود من احوالها في سلال وأسبات صنعت صنعاً ظريفاً من قش ملون وهذه هي الصناعة التي

يقبل عليها بعض السائحين وتجد لديهم سوقاً رائجة أما اللين وأما العيش فلا عيش لهما الا بين المسافرين من أهل البلاد

* * *

وهؤلاء السكان من طبقة العمال في السودان ليسوا جميعاً أصليين فيه بل بعضهم سكتاوية أتوا من سكتو وآخرون فلاتة جاءوا من البيجريا في طريقهم الى الحج فوقفوا في السودان يبتغون ما يقيتهم في هذه الرحلة الطويلة التي تكلفهم أحياناً سنين تباعاً يقومون بها عن قلب طيب ونفس راضية راجين أن يغفر الله لهم بعد اداء فريضتهم المقدسة ما تقدم من ذنبهم وما تأخر

ومن هؤلاء الفلاتة عدد عظيم يقوم بزراعة القطن وجنيه في أراضي الجزيرة وعلى عملهم تعتمد حكومة السودان الى حد عظيم

* * *

الدامر عاصمة مديرية بربر والقطن الذي يزرع في مديرية بربر وفي غيرها من مديريات شمال السودان يروي من مياه النيل الرئيسي. وطرائق ريه تختلف فما كان من زراعة الأهالي فترويه السواقي. وما كان من زراعات الشركات فترويه الآلات وقد ذكر لي بعضهم أن المساحات التي تزرع قطناً في شمال السودان — أي فيما قبل الخرطوم — ليست كثيرة وليست بذات خطر فهي لا تزيد على ثلاثين الف فدان وقد اتفق بين الحكومة المصرية وحكومة



سودانيون بجانب القطارات في احدى المحطات

السودان — أو بالأحرى والحكومة الانكليزية — على ري هذه المقدار بعد بناء خزان اسوان وتعليته وحكومة السودان ترسل للحكومة المصرية في كل عام ورقة تسجل فيها أنها لم تزرع زراعة صيفية الا هذه الثلاثين ألف فدان وتعتبر الحكومة المصرية هذه الورقة كافية فلا تحتاج الى مراقبة هذه المقادير بطريقة من طرق المراقبة تقوم هي بها من تلقاء نفسها أو تتفق عليها مع الحكومة البريطانية .

والقطن الذي يزرع في هـذه المناطق كالقطن الذي يزرع في الجزيرة يسلم الى الحكومة لتتولى بيعه بالطريقة التي تراها وقد رأت بيعه بالمزاد في هذا العام وبعد البيع تحاسب الاهالي على أنها مع ذلك قد صرحت لبعض رؤساء القبائل ذوي النفوذ بأن يتولوا هم بيع أقطانهم بأنفسهم وقد ذكر لي مصري من اخواننا اليهود له متجر واسع للاقطان في لفربول أنهُ هو الذي يشتري أقطان هؤلاء المشايخ في كل عام كما يشتري قطن الحكومة وان المشايخ الذين سمحت لهم الحكومة بهذه الميزة لا يبلغون العشرة عداً

وتسعى حكومة السودان ليكون مستقبل القطن فيه ذا شأن عظيم فقد روى هذا التاجر أن الاقطان المصرية لم تكن وافية بحاجة المغازل في العام الماضي فقضت لجنة البورصة في لفربول بامكان تسليم القطن السوداني مقابل كنتراتات المصري ومعنى هذا ان اللجنة لم تجد من الفرق بين القطنين ما يحول دون تنافسهما في سوق الصناعة

وليست تقف زراعة القطن عند مديرية برىر بل تتعداها الى المديريات التي بعدها حتى الخرطوم ، وان كانت الأراضي التي تزرع قطناً ما تزال قليلة وهذه القلة هي التي تجعل اهالي تلك المناطق ما يزالون بعيدين عن معاني الحضارة مستمسكين بتقاليد البدو الصحيحة ، على ان ما يجده بعضهم من الربح في زراعة الارض يحدث هذا البعض للاستقرار واستغلال الأراضي

وهذه حالة لم تنتشر بعد انتشاراً كبيراً بل ما يزال ميراث الماضي كبير الاثر في أهالي السودان وأهالي السودان كانوا الى وقت قريب يأنفون العمل ويقيمون على حياة البادية بكل معانيها . فما دام في دار الواحد منهم بعض الذرة او الشعير عد نفسه غنياً وأنف العمل ولم يأنف أن يجود وأن يكرم ولا ينزله عن انفه العمل إلا الجوع الذي يلازم الحضارة فالحضارة حيث حلت بحاجة الى العمل ومن أنف العمل فقد حل عليه الجوع

انطلق القطار بنا الى شندى ومررنا بعد ذلك بالشلالات الثلاثة وصرنا نقترب رويداً رويداً من الخرطوم بحري فلما بلغناها قابلتنا معسكرات كانت معسكرات الجيش المصري حتى العام الماضي . وقد أصبحت اليوم معسكرات لقوة الدفاع عن السودان وهذه المعسكرات واقعة على ضفاف النيل الازرق الى الضفة الشمالية وتمتد الى بعد منه غير قليل . عن يمين الداخل لى محطة خرطوم بحري متسع كبير بعد

كورنتينة للحيوانات المسافرة الى مصر تبقى فيه الزمن الكافي لليقين بأن ليس فيها ما يحمل الى مصر وباء أو ضرراً ، وتنتقل منها مباشرة الى القطار الذي يقلها الى حلفا فالسفين الذي يقلها الى الشلال

والى جانب هذه الكورنتينة مكان أعدته حكومة السودان لتربية الحيوانات . ولحكومة السودان فيما قيل لي عناية كبيرة بهذه التربية حتى لا تحتاج الى شراء خيل للجيش ولا تستعين من حيوانات الخارج إلا بالنزر القليل مما تحتاج اليه لاصلاح النتاج

* * *

يساب النيل الازرق بين الخرطوم بحري والخرطوم ويجتازه القطار فوق جسر (كوبري) عريض يتسع للقطار وللترام وللراكبين والراجلين ثم يلتوي القطار بعد ذلك ماراً بين كلية غردون ومدارس الخرطوم المختلفة عن اليمين ومعسكرات الجيش البريطاني عن الشمال ويتابع التواءه حتى يصل الى محطة الخرطوم الرئيسية

تقع محطة الخرطوم في فضاء من الأرض لا يحيط به ما يشعر القادم معه بشيء من نهاية محطات العواصم فالمباني الخاصة بأعمال المحطة منعزلة صغيرة قليلة الارتفاع كمباني محطات الارياف العادية في مصر . وليس لها من وجاهة مباني محطة حلفا أو محطة العطبرة كثير ولا قليل وخط الحديد لا يظله سقف ولا يحيط به من الافاريز ولا يتصل به من خطوط المناورات الكثيرة ما يرى عادة في المحطات الرئيسية . لذلك

دهش من لم يعرف الخرطوم من قبل أن تكون هذه محطة سكة الحديد لعاصمة السودان على أن هذه الدهشة لم تدم الاريثما أحدث فالنصر ربيات كانت تمتد الى مرمى النظر في طريق متسع يبدأ أمام المحطة هذه ربيات يوم الملك اعدت للاحتفال بعيد تذكار مقدم جلالة الملك جورج الخامس الى الخرطوم حين عودته من الهند في سنة ١٩١٢ وهذا الطريق الذي تمتد فيه الربيات هو شارع فكتوريا. وهو يصل ما بين المحطة وسراي الحاكم العام

كانت الساعة الرابعة حين وقف القطار في المحطة وكنا قد أمضينا ستا وعشرين ساعة من وقت ان غادرنا حلفا ومهما تكن معدات الراحة بالقطار كاملة فالسفر قطعة من العذاب لذلك فرح المسافرون جميعاً لبلوغهم الخرطوم ونزل كل يبحث عن البيت أو الفندق الذي يأوي اليه ونزلت مع من نزل فالفيت جماعة من المصريين الذين عرفت من قبل وقوفا ينتظرون فلما رأوني قابلوني بالترحاب والبشر مما أدخل الى نفسي الغبطة والطمأنينة ثم غادرت محطة الخرطوم الى فندق جراند حيث قضيت أيام مقامي بعاصمة السودان

الخرطوم لانظرة الأولى

قبل افتتاح السودان بقوات الجيش المصري وبعض الفرق الانكليزية في العقد الأخير من القرن الماضي كانت أم درمان هي العاصمة الكبرى لهذه الأصقاع المترامية من أراضي القارة الافريقية ، وكان يطلق عليها اسم عاصمة الدراويش ، وكانت ذات أهمية تجارية خاصة أن كانت ملتقى طرق القوافل الآتية من الأبيض وغير الأبيض من بلاد الداخل فلما فتحت السودان وجد لورد كتشنر الخرطوم وفيها من التذكارات التاريخية للحملات المصرية الماضية ما يجعل حقًا لها أن تكون عاصمة بدل أم درمان وكانت قد خربت كل مخرب أثناء الحرب فلم يبق منها إلا آثار واطلال . فجددها بهمة الجيش المصري وقيامه بأعمال البناء وغيرها من أعمال التعمير وسعي سعيه ليجعل أم درمان أثراً بعد عين لكن أم درمان بقيت الى يوما مستقر تجار الواردات الى السودان كما أن الخرطوم أصبحت بعد بنائها وبعد امتداد خط السكة الحديد عندها مستقر تجار الصادرات من السودان

ولقد روى المحدثون كثيراً من الروايات عن الخرطوم وجعلوا منها مدينة عربية بحتة فشوارعها متسعة يزيد بعضها على الخمسين متراً ولا ينقص واحد منها عن ثلاثين متراً ومبانيها منتظمة تمام

الانتظام ، وفيها نور الكهرباء يضيء شوارعها ومنازلها ، وفيها المياه جارية في كل المنازل وهذه التفاصيل عن صورة هذه المدينة التي اشتق اسمها من صورة النيل الازرق الملتوي التواء خرطوم الفيل تترك في ذهن القاريء مجالا لمقارنات كثيرة فهذه الشوارع الواسعة وهذه الأنوار الكهربائية وهذا الماء الجاري أقرب ما يكون الى صور مدن المياه في اوربا ومدن المياه في أوربا تجمع من معاني النعمة ما لا يجتمع في غيرها من المدن فيها الحدائق الغناء وفيها أماكن النزهة والرياضة وفيها المجتمعات الزاهية الزاهرة ، وفيها كل ما يجلو صدأ النفس ويطرد هموم القلب اذن لا بد أن تكون الخرطوم على هذه الصورة البسامة الجذابة فطوبى لقوم جعلوا في أقرب المناطق لخط الاستواء ما قصر عنه كثير من أهل مدائن المناطق المعتدلة .

وتدخل الخرطوم وهذه الصورة تملأ نفسك فما يكاد القطار يسير بك نحو المحطة الوسطى — كما يسمونها — حتى إذا بك قد مررت — بعد تخطيك كبرى النيل الازرق بين الخرطوم والخرطوم بحري — ببعض مبان للحكومة لا تحقق الصورة التي في نفسك ولكنها مع ذلك لا تقضي عليها فحول كنيسة غردون والمدارس المحيطة بها حدائق طريفة تأخذ بالنظر لكن بعدها فضاء صحراويا لا نبات فيه ولا ماء وتتلفت وأنت بالقطار يمنة ويسرة فاذا كل ما حولك مبان قليلة الارتفاع تبنى من طابق واحد فاذا وقف القطار

رأيت ميدانًا واسعًا ليس فيه شيء يزينه ورأيت أمامه مثل تلك المباني القليلة الارتفاع وشعرت بهذه الصورة الحداثة الممتلئة بها نفسك وقد بدأت تذبل وتضمحل . لكنك سرعان ما تشتغل عن هذه الصورة ودنوها عن تراه من معارفك واصدقائك الذين جاءوا الى المحطة ينتظرون هذا القطار القادم من مصر آملين أن يجدوا به من ريح مصر ما يسليهم وينعشهم وان يلاقوا بين الراكبين هؤلاء المعارف الذين غابوا عنهم سنين بعد أن كانوا في حياتهم جزءاً غير قليل من هذه الحياة ، والذين أصبحوا بسبب هذه الغيبة ولوجودهم نائين عن القاهرة ومثلها من الأماكن التي عرفوهم من قبل فيها أقرب إلى قلوبهم وأفئدتهم ترى هؤلاء المعارف تهز أيديهم ويهزون يديك بشوق ولهفة ويسألونك عن البلاد ما حالها وعمن خلفت وما صار اليه أمرهم ؟ فاذا فرغت من ذلك وفكرت في اختيار فندق تأوى اليه عاونوك برأيهم وبمساعدتهم وبكل ما يملكون من وسائل المعاونة ، وأشهد لقد لقيت من رفقهم ما أنساني مشقة سفر ست وعشرين ساعة فيها ما فيها من مشقة برغم ما في القطار من وسائل الراحة والطمأنينة

وعرفت ساعة وصولي المحطة أحد كبار موظفي حكومة السودان من السوريين فلقيني بترحاب أي ترحاب وصحبني في سيارته الى

حراند أوتيل حيت برلت . وما كاد يستقر بي المقام حتى حاء لزيارتي نعص احواننا المصريين

وفيما كنت بالسيارة في طريقي الى الفندق أظهرت دهشتي من هده الصورة التي تبدت لي من الخرطوم والتي لا تتفق في شيء مع ما كان مرتسما لها في خيالي الشوارع واسعة حقاً وعرضها يريد على ثلاثين متراً وفيها الكهرباء حقاً تضيئها اذا جن الليل وولت موليات النهار . لكنها شوارع غير مرصوفة والتراب عن حانبيها كثير حتى ليغوص فيه محل السيارة ونحن على ما يظهر في حيز احياء المدينة الآهلة بأعاظم سكان الخرطوم من الموظفين ثم ما هده المباني المحيطة بنا والتي لا ترتفع اكثر من طابق واحد ؟ وما لها لا يحيط بها من نضرة الزرع وخضرته الا قليل ؟ ولم أستطع اخفاءما يجول بخاطري فسألت صاحبي ما بالهم لا يرصفون الشوارع فكان حوابه أن قال ان دلك يكلف مليونا من الحنيهات وميزانية السودان كله لا تزيد على خمسة ملايين ولذلك تكتفي الحكومة بتسيير الوابورات الثقيلة في القسم الأوسط من الشوارع الكبرى حتى يتمكن الناس من السير فيه

ازدادت الصورة التي كانت مرتسمة في خيالي من الخرطوم ذبولاً حتى كادت تصل الى حد القبح حين دهشت في صبيحة اليوم التالي أرود انحاء المدينة فقد انحدرت الى أحياء ُعدت لموظفين ُقل من الأولين درجة ولبعض أعيان المدينــة . كما انحدرت بعد ذلك إلى

الاحياء الآهلة بالسودانيين وتجارتهم والتي تقع بعد ميدان الجامع . وهذا الميدان فسيح متسع أعد لتقام فيه الحفلات ذات الصبغة الدينية وأخصها حفلة مولد النبي . مع ذلك فهو ميدان ترب تغوص القدم فيه الى حد يتعذر معه السير ويهد السائر التعب بعد قليل فأما ما بعده من الاحياء السودانية البحتة فتتجلى فيها مظاهر الفاقة القاتلة. ترى فجوات مفتوحة في بناء متحصص هي حوانيت الصناع والباعة . وترى في هذه الفجوات جماعة السودانيين جلوساً وعليهم ملابسهم البيضاء أصبحت سمراء من الشمس والتراب وترى أمامهم من صناعاتهم الفخريات والاحذية وغيرها من صناعات وطنية ضئيلة فاذا ازددت تغلغلاً الى ما بعد ذلك رأيت حوانيت من القش يعمرها رجال لا يكاد يسترهم من الملابس إلا قليل ورأيت بعدها « سوق النساء » عملت الشمس في وجوههن وأساريرهن فرسمت عليها من علائم البؤس وآثار الشقوة ما لا تفهم معه كيف ترضى احداهن احتمال هذه الحياة القاسية لولا ما في الحياة من سحر خداع يغري أشد الناس بؤساً وشقاء بأمل في يوم نعمة ورخاء وتبيع هاتيك النسوة (الكسرة)،وهي نوع قبيح من الطعوم ،كما يبعن الفلفل و بعض ألوان الشقاء مما يطعم الفقراء

ولا تطاوعك نفسك لتشهد من بؤس هاتيك واولئك اكثر مما شهدت فتعود أدراجك طالباً بعض ما يروح عن نفسك

وكان معي صاحب مصري طريف سار وإياي الى ناحية الترام نركبه الى جهة (المقرن) والمقرن هو المكان الذي يقترن فيـه ماء النيل الأبيض بالنيل الازرق وتجري عنده السفين التي تقل الركاب المسافرين بين الخرطوم وأم درمان فقصدنا الى حيث محطة الترام وانتظرناه حتى اذا أقبل ألفيتـه تراماً بخارياً تجره آلة ذات عجيج وضجيج ومن ورائها عربات عدة تكاد تبلغ الثماني أو العشر وأكثرها قدر تقوم فيه مدرجات يجلس عليها ركاب الدرجة الثالثة وبه عربتان هما عربتا الدرجة الأولى مفروشة مقاعدها بجلد أو مشمع تود لو أن مكانه حشناً بطيفاً

اجتاز الترام بنا الخرطوم من طرفها الى طرفها الآخر واجتاز بنا في أحياء تختلف نعمة وبؤساً ، لكنه كان يسير في شبه صحراء قل أن تقع العين فيها على سائر فلما بلغنا مخازن الحبوب عند سكة الحديد وقعت العين على منظر ما أحسبني رأيت في الحيـاة شيئاً أشد منه ايلاماً ولا أكثر منه دفعاً للاشفاق الى النفس منظر لن يستطيع الخيال وان علا وان بالغ في العلو أن يصل الى تجسيد الألم الانساني كما جسدته هذه الحقيقة الناطقة بكل معنى القسوة الانسانية

الى جانب مخازن الحبوب ميدان فسيح من تراب صارب لونه الى لون الرمل وفي هذا الميـدان تمر الغلال من ذرة أو شعير الى المخازن وقد يقع منها في اثناء مرورها ما يختلط بهذا التراب

لم أر الحبوب تمر ولم أر ما سقط منها الى الارض واختلط بترابها لكني رأيت امرأتين كل واحدة منهما عارية أو تكاد فلا يسترها إلا خلق قذر يغطي بعض أسفلها و يترك الظهر كله والأذرع والرأس مكشوفة للشمس وللهواء . وكانت كل واحدة مقعية كما يقعى الكلب وتنبش الارض بأظافرها وقد أحدثت فيها هوة كبرى وهي ما تزال دائبة على النبش وتلقي ما بين حين وحين شيئاً من التراب الذي يعلق بأظافرها و بيديها في غربال أو منخل الى جانبها سألت صاحبي . ما بال هؤلاء النسوة أكببن على الثرى يحفرنه بأظافرهن كما يحفر الحيوان وجاره بمخلبه ؟ قال صاحبي وفي نبرات صوته رنة هم وشجن . هن فقيرات لا يجدن قوتاً ، وقد تعول واحدتهن طفلاً أو أكثر ، وقد أقبلن يحفرن التراب آملات أن يجدن فيه حبة من ذرة أو شعير مما قد ينتثر ساعة حمل الغلال الى المخازن فاذا ظفرت احداهن بما حسبته حبة القت به في غربالها وتظل كذلك يومها تحتفر القوت من تراب الارض احتفاراً فاذا خيل اليها أن قد اجتمع في غربالها بعض منه عملت لتنظيفه عل فيه ما يقيمها ويقيم من تعول من طفل أو يتيمة يوماً أو بعض يوم وهن كذلك يفعلن ما أغناهن القدر فاذا أمطرت الدنيا أو انقضى موسم الغلال فلهن ولمن يعلن البؤس والويل

أي سواد لحظ الانسان كهذا السواد ؟! هو أسود من تلك الوجوه الشقية والظهور العارية والشعر الفاحم في تجعده والتفافه

دلك مطر دونه كل ما رأيت من مناظر الفاقة والبؤس دونه هاتيك المتسولات يرتجين عطف كريم ، أو يأملن أن تمس توجعاتهن قلباً مكلوماً يفيض حزنه سخاء . هو بؤس النفس التي تعف عن السؤال وترى في غايات التقاء مع العمل نعمة الرفعة عن مسألة اللئام بل عن مسألة الكرام

حدثت بعض المقيمين بالخرطوم بهذا وبمثله مما شهدت فيها فأدلى ما كان لها من صورة في نفسي وجاهدت لأجد لذلك كله عذراً فالخرطوم بلد حديد ، دخله الجيش المصري ومن معه من فرق انكليزية سنة ١٨٩٨ فألفاه خراباً يباباً ومن ذلك التاريخ — أي منذ ثمان وعشرون سنة فقط — أقيمت المدينة كلها بما فيها من معسكرات ومنازل وشوارع وطرق رسمت يوم رسمت على صورة الراية البريطانية لتكون مثلاً للنظام الانكليزي الهادىء المطمئن وغرست الاشجار فيها فنبت ما نبت منها وأعيد غرس ما مات والمدن كالأشخاص لها حياة غير الصورة الظاهرة وغير حياة الجسم الذي يتشابه مع أجسام الغير في اكثر مظاهره لها حياة الروح المستمدة من تاريخها ومما مر بها من محن وآلام ، ومن مسرات وأعياد وثلاثون سنة ليست كافية لتبعث الى مدينة من المدن حياة الروح ولتجعل منها ما يحدث النازل اليها عمان تحدث بها المدن

القديمة التي شهدت من عبر التاريخ وعبره ما ترك على كل جدار من جدرانها وحجر من حجارتها صحفاً ناطقة بمختلف الصور والمعاني .
فالخرطوم العدر ، وهي بعد بلد حديث . اذا هي لم تحدثك بمكنون حياتها، و بدت لك كما تبدو للعين الدمية صنعها الصانع على مثال غيرها من الدمى ولم يكلمها الوقت بجراحه فيجعل لها معنى وقيمة ولها الى جانب ذلك من العذر أن ما فيها من بعض الجمال انما أعد لمتاع الحاكمين وذوي الامر فيها مما لا تزال مظاهره لذلك قاصرة على الحي الذي فيه يقيمون

فكان جواب بعض من تحدثت اليهم عما أحسست به وبما التمست للخرطوم من عذر ان قالوا ان فيما أقص عليهم شيئاً من الحق كثيرا وفيه من الغلو كذلك شيء كثير فالخرطوم بلد حديث حقاً وليس بين سكانه من التجانس ما يجعل فيه وحدة الروح التي تقيم الحياة ففيه الانكليز حكام ، وفيه السوريون والمصريون موظفون ، وفيه الأروام والسوريون تجار وفيه السودانيون أقل من كل من سواهم في البلد أثراً وسلطاناً وليس بين هؤلاء جميعاً من الاختلاط ما يخلق روحاً جماعيــة ترفرف على البلد كله ، بل لكل جماعة قوامهــا القومي والجنسي والديني واللغوي ، للانكليز ناد وللمصريين ناد وللاقباط من المصريين مكتبة وكنيسة ومدرسة ، وللسوريين ناد ومجامع أخرى ، وللاروام ناديان والسودانيون أهل

البلاد لا نادي لهم وإنما يجمعهم حو بلادهم ورويح دلك المناخ والطقس الدي يشتمل البلاد وشوارع البلد على سعتها لم تنظم بعد النظام الدي يجعل ساكن اوروبا وساكن مصر يراها بالعين التي كان يظن أن سيراها بها وأحياء البلد ثلاثة أولها الواقع على النيل الأزرق مباشرة وهو أجملها وأكثرها نظاماً ، لا يقطنه من غير الانكليز إلا السير السيد علي الميرغني ، فله فيها قصره وله امام قصره ساقية تمائها الجاري وثانيها مقام غير الانكليز من الموظفين ومقام بعض الانكليز الأصاغر وبه تجارة الاروام والسوريين وما في البلد من دواعي المسرة ، وثالثها مقام أهالي البلاد وبه الجامع وميدانه حيث يقام مولد النبي ، وبه ما سبق أن أشرت اليه من مظاهر البؤس والفاقة لكن للخرطوم على الرغم من دلك كله جمالاً وللحياة فيها روعة لمن عرف معنى الحياة وروعتها

ولعل الانكليز أول من عرف كيف يجعل للحياة في الخرطوم معنى وروعة مند نزلوها فقد أقاموا لكل منهم منزلاً بما تحتمله كلمة منزل الانكليزية Home من المعنى جعلوا فيه حديقة وملعباً للتنس ومقاماً للطيور وجاء كل واحد في بيته من الحيوانات والطيور الأليفة أو التي يسهل تألفها كالغزال والنعام بكل ما يحتاج اليه لملء أوقات فراغه من غير ملال بل بغبطة ولذة وقد وجد كل انكليزي من « منزله » الكامل الاداة ما يعوض عليه مشقات العمل في هذا

الجو الشديد الحرارة في فصل الربيع وما يتسلى به عن وحدته وبعده عن بلاده . ثم لم يكفهم هذا فخلقوا ملاعب لهم يلعبون فيها كرة القدم كما أقاموا خارج المدينة ميداناً لسباق الخيل ومتى تمت للانكليزي معدات الرياضة كمل له نصف نعيم الحياة وهو واجد في بيته غير ما فيه من معدات الرياضة سكينة وطمأنينة فأما ما بقي بعد ذلك من لذة الجماعة والتحدث الى الآخرين فميسر للانكليزي في ناديه بالخرطوم يذهب اليه كل مساء يقضي فيه شطراً غير قليل من وقته

وقد أخذ غير الانكليز مأخذ الانكليز ونحوا نحوهم . فلكثير من الموظفين السوريين والمصريين في منازلهم ملاعب للتنس وأنواع شتى من التسلية

قالت سيدة سورية لها في الخرطوم ثلاث سنوات لقد شعرت شعورك لأول ما نزلت الخرطوم فلم يعجبني قفرها وصمتها الموحش . لكني لم ألبث على ذلك إلا قليلاً وما لبثت أن وجدت في منزلي وما حوله من حديقة وملعب وطير أو حيوان سلوى حببت إليّ الخرطوم وجعلتني أرى للحياة فيها متاعاً وروعة

ولا ريب في احتواء ما يقولون على جانب من الحق كبير . فالبيت يشغل من حياة الانسان رجلاً أو امرأة حظاً عظيماً فيه لمن عرف كيف يعيش فيه نعمة وسعادة وليس البيت هذا الطابق

الضيق في احدى العمارات المشيدة يحيط سا كنه عن اليمين وعن الشمال وأعلاه وأسفل منه من يرى ضرورة المحافظة على سكينتهم كي يحافظوا على سكينته ، ثم هو لا يجد بعد في هذا الطابق ما يعينه على مرحه ورياضته انما البيت الذي فيه النعمة والسعادة هو ما اتسع لحديقة وملعب وكفل لصاحبه سداد ما يحتاج اليه وما يشتهيه وما اكثر ما تكفل بيوت الخرطوم هذه الحاجات

ويذهب المقيمون بالخرطوم في تحبيذ مدينتهم الى اكثر من هذا ، فهم يسألونك ألا ترى هذا الشارع الجميل الممتد على شاطئ النيل الأزرق ما بين سراي الحاكم العام وحديقة الحيوانات والواصل الى المقرن ؟ ألا ترى المباني على جانبه تحيط بها حضرة ازرع النضر وقد قامت فيها الاشجار باسقة فاشتملت اكثر المنازل حتى لتكاد تحسب القصر المنيف كوشحًا في ظلال حديقة ؟ وفي هذا الشارع يقوم فندق (الجراند) وهو يضارع أبهى فنادق العواصم العامرة بنظامه وظرفه وبالحديقة الغناء الواسعة المحيطة به وحديقة الحيوانات الى جانبه فيها مسرح للعين ونزهة للخاطر بما تحتوي من ضوار وكواسر ومن طير ووحش وغزال ثم ان بالخرطوم من أماكن التجارة ما لا تطمع فيه مدينة في حجمها وعدد سكانها فيها متاجر واسعة يرد اليها كل ما ينتجه العالم المتمدن من أنواع الصناعة ومواد الترف ، وبعض هذه المتاجر كبير الى حد يكاد ينافس معه أماكن التجارة

الـكبيرة بالقاهرة وما عليك إلا أن تزور السوق لترى فيها محلاً لدافيس برايں يافسه محل لمايبان الأرمني ، ولترى كذلك محلاً لـكناتو الرومي ولمرهج السوري ولترى غير هذه من الاماكن ما لا تأبى مصر القاهرة أن تنافس به مدائن العالم

وليس للغريب النازل بالخرطوم أن يعيي عليها عدم توفر المجتمعات العامة بها ففيها قهوات و بارات ومطاعم ولئن كان هذا كله قليلاً وكان غير مأهول فلأن سكان المدينة قليلون لا يزيدون عن ثلاثين الفاً ولأن أهلها اعتادوا عيش البوادي يجتمع الى كل ناد من اتفقوا جنساً ولغة وديناً ، فليس بهم الى هذه المجتمعات من حاجة .

وفي هذا الذي يقوله سكان الخرطوم جانب من الحق غير قليل وفيه ما يدل على أن النظرة الاولى لهذه المدينة الحديثة المختلطة تسرف في الانتقاص منها والحماية عليها لـكن هذه النظرة الأولى تحتوي من الحق هي الأخرى جانباً غير قليل فهذا النوع الذي يصفون لك من الطمأنينة والسكينة قاصر على جماعة الموظفين والقائمين بأمر الحـكم ولئن كان اكثر المقيمين بالخرطوم موظفين وكان من بها من تجار ينتمي كل منهم الى طائفة يجد في الانتماء لها متاعه فأنت لا تكاد تشعر في الخرطوم بحياة المدنية على ما تألفها في العواصم التي تجمع الموظفين والتجار وأرباب الصناعة والفن والعلم وما تنشؤه هذه الحياة من جو فكري تبعث

فيه الآراء المختلفة متآزرة مرة متضاربة أخرى عاملة دائماً للسير بالانسانية المحيطة بها في سبيل الرقي والتقدم

وهذا طبيعي ان كان السودانيون قليلون في الخرطوم حد القلة، وكانت حياة الطائفة الراقية منهم متصلة بالحكومة اتصالاً له من الصبغة السياسية اكثر مما له من أية صبغة أخرى ذلك بأن أم درمان ما تزال للسودانيين هي المأوى وهي الملجأ اليها تحن قلوبهم لأنها عاصمتهم وعاصمة اسلافهم وان كانوا لا يملكون الدفاع عنها لتكون عاصمة الجميع وملجأهم ومأواهم

***

هذه الصورة الخاصة بالخرطوم ترجع على ما ذكرنا الى أنها مدينة جديدة لما تمض ثلاثون سنة على عمارتها للمرة الأخيرة، والى أنها بنيت هذه المرة الأخيرة لتسد حاجات الفاتحين وتقدم اليهم ما يستطاع من مواد النعمة والترف ولذلك كان اكثر السودانيين الذين يقيمون بالخرطوم إذا يقومون في ركاب هؤلاء الفاتحين وخدمتهم ومن أجل ذلك لا يستطيع النازل بالخرطوم أن يرى بها ما يكشف له عن معنى الحياة الوطنية في هذه الربوع المترامية الأطراف وأنت إذا أردت أن تعرف شيئاً من معنى هذه الحياة فلا سبيل لك إلا أن تقصد الى الديم حيث تقوم « تكلات » السودانيين من الصناع والخدم وسائقي السيارات وغيرهم ممن يقومون

في خدمة السادة الحاكمين في هذه التشكلات المبنية من الطين والقائمة في « ديم » الوطنيين ترى شبهة الحياة السودانية المحيطة بالخرطوم وهي حيـــاة شقية تنفق وما يقوم به أصحابها من أعمال وما لهم عند الفاتحين وعند السودانيين أنفسهم من مكانة

و « الديم » يبعد عن الخرطوم مدى غير قليل وهو يعيد الى ذاكرتك حين تراه صور « العزب » القديمة التي يقطنها « التملية » والمستأجرون في أرياف مصر والديم كالعزب القديمة لا منافذ لمنازله المكونة من غرف أرضية بابها هو الفتحة الوحيدة فيها منه يدخل الهواء والنور والشمس كما يدخل الناس والدواب

ولما كانت الخرطوم مقام الفاتحين ومن أحاط بهم من التجار الأروام والسوريين ومن لاذ بهم من بعض السودانيين فالحياة فيها أقرب للحياة العربية في كثير من مظاهرها وانك لترى متاجرها متسعة على طراز المتاجر الاوربية كما ترى أكثر التجار فيها اشد بالاوربيين اتصالا وفي سبيل هـــذه الحياة العربية يرضى المقيمون بالخرطوم أن يجعلوا للحوم والفواكه والخضر المحفوظـــة في علب الصفيح او الزنك حظاً كبيراً في قوام حياتهم ، برغم ما يمكن أن يعترض به أولو العلم في شؤون الصحة على هذه الأطعمة المحفوظة ، وبرغم ارتفاع أثمان هذه المواد التي ترد الى الخرطوم من بلاد بعيدة لكن لاهل الخرطوم في انخفاض أثمان الحاجيات الأخرى التي تمو

وترى في البلاد نفسها ما يعوضهم بعض الشيء عن غـلاء أثمان الواردات وما يخفف بعض الشيء كذلك من الاعتراضات الصحية التي يطعن بها على الأطعمة المحفوظة فالغنم والديكة الرومية وكلاهما طعام صالح شهي رخيصة غاية الرخص فريال يكفي ثمناً « لأوزى » لذيذ أو لديك رومي أكثر منه لذة ويرى بعض اخواننا المصريين المقيمين بالخرطوم والمتفننين في الطعام أن الديكة الرومية تحتاج بعد أن تشترى بهذا الثمن البخس الى زمن تقيمه بالمنزل لتسمن وتلذ لـكن الأكثرين يرونها لذيذة من غير حاجة الى هذه العناية

أما الخضر والفاكهة فنادرة حـد الندرة في الخرطوم وفي السودان جميعاً حتى لتنقطع في بعض الفصول انقطاعاً تاماً وحتى لترى الوارد منها من الخارج تتخاطفه الأيدى قبل أن يصل الى الأسواق . ولذلك كانت اللحوم الغذاء الاساسي للمقيمين هناك وكان لها عليهم من الأثر ماها على آكلة اللحوم لولا حضارة اسر تنها دماؤهم احيالا طويلة فلا تستطيع تهور أو سنوات أن تقتلعها من طبعهم اقتلاعاً

على أن الخرطوم تمتاز مع ذلك كله بأنهـا مقر حكومة ذات نشاط عظيم فإذا كانت مدينة تنقصها حياة المدنية وينقصها تاريخ المدائن فهي مستقر نشاط كبير للموظفين من اجناسهم المختلفة وهي لذلك أكثر شبها بالمعمل Laboratoire وهذه الصورة منها تستحق أن تكون موضوع بحث مستقل وعناية خاصة

عيد الملك

أو يوم الملك

إثر تتويج صاحب الجلالة جورج الخامس ملكا على انكلترا في أواخر سنة ١٩١١ سافر على عادة اسلافه ليتوج امبراطوراً للهند وفيما هو في طريق عودته مر بالسودان وزار الخرطوم في ١٧ يناير سنة ١٩١٢ وقد اعتبرت حكومة السودان هذه الزيارة بمثابة تتويج لجلالته امبراطوراً للسودان واعتبرت يوم ١٧ يناير يوم عيد رسمي كأنه عيد جلوس جلالته على عرش السودان وفي هذا التاريخ من كل عام يرسل حاكم السودان العام برقية الى جلالته بالنيابة عن أهالي السودان يعرب لجلالته فيها عن تعلقهم بعرشه واخلاصهم له فيرد جلالته شاكراً أهالي السودان مظهراً حرصه وحرص جلالة الملكة على رغد السودان وتقدمه وفي هذا التاريخ من كل عام تقفل دور الحكومة وتزين الخرطوم بزينة العيد ويقيم الحاكم العام بسرايه حفلة شائقة توزع فيها الأوسمة التي تنعم بها حكومة ملك إنكلترا على رعاياها من أهل السودان اعترافاً بولائهم وتقديراً لاخلاصهم ولما يقومون به من جليل الخدمة للسودان وللامبراطورية

وصادف أن كان يوم ١٧ يناير سنة ١٩٢٦ يوم أحد ، فتأجل الاحتفال بعيد الملك الى يوم الاثنين بعده . ولما كان مندوب انكلترا السامي لمصر والسودان قادما لافتتاح خزان سنار فقد جعلت حفلة هذا العيد التي تقام في سراي الحاكم العام تحت إشرافه ورعايته . يوزع هو فيها ما تنعم به الحكومة البريطانية من الأوسمة ويقوم من المراسم بما تقتضي به هذه الرعاية

وسراي الحاكم العام جديرة بأن تقام فيها مثل هذه الحفلة وما هو أفخم منها فقد اقيمت على أثر فتح السودان في أواخر عام١٨٩٨ حيث كانت تقوم السراي التي قتل دراويش المهدي فيها غردون باشا والتي كانت مقر حاكم السودان من قبل مصر وقد روعي في إقامتها ما يجب لها من العظمة والفخامة وهي تطل ببابها على النيل الأزرق، ولها عنده بابها البحري وتطل من الجهة القبلية على متنزه واسع الارجاء مترامي الانحاء بديع النظام يقوم في آخره الباب القبلي المؤدي الى شارع فكتوريا فالى محطة الخرطوم

وأنت إذا دخلت الى السراي من جانب النيل الأزرق قابلك لأول تخطيك الباب دهليز تتصل به غرفة انتظار من ناحية وتتصل به من الأخرى غرف عديدة متداخلة أعدت لموظفي الحكومة المتصلين بالسراي وجدران هذا الدهليز مزينة كلها بعدة الحرب وآلته فمنها قبعات وحراب مختلفة اللون والشكل لكنها جميعاً

قبعات الفرق الأنكليزية وحرابها وعلى الجدران رايات الفرسان الانكليزية . فاذا انت تخطيت الدهليز وجدت افقياً عليه دهليزاً آخر طويلا يمتد من الجانبين الى ناحيتي السراي الشرقية والغربية ويطل هـذا الدهليز الافقي على ساحة يقوم على جانبيها جناحان خصص احدهما للحاكم العام وأهله وجعل الآخر لضيوفه والدهاليز والغرف والاجنحة كلها بادية الفخامة والمهابة ومن فوق السراي يرفرف العلمان المصري والانكليزي

أما حديقة السراي أو بالاحرى متنزهها فقـد فرشت أرضه بسندس الحارون والحشائش الصغيرة وقامت في حواشه وفي أواسطه أشجار باسقة كان ورقها في هذا الفصل الذي يذبل فيه ورق الشجر في مصر ويتعري من كل ورق في أوربا أخضر ذا رواء وبهجة ولا عجب ، فأجمل أيام السنة في الخرطوم هي ما يقابل أيام الشتاء وما ذلك بطقس نهاره نهار الربيع وليله أخريات الصيف وكل ما فيه من مظاهر الحياة بسام بديع الابتسام

***

أصبحت الخرطوم يوم الاثنين إذن في لباس العيد كانت الرايات والاعـلام ترفرف في شارع فكتوريا وفي مقدمة بعض الحوانيت والمتاجر وكان الحاكم العام قد دعا الى حفلة شاي تقام في سرايه بعد ظهر ذلك اليوم عدداً يزيد على الثمانمائة من بينهم مائة

وعشرة من أعيان السودانيين ورؤساء القبائل والعشائر فيها ممن لا يقيمون بالخرطوم كما دعا أعيان السودانيين بالخرطوم ودعا كبار الموظفين وكل ذي مكانة من غير السودانيين وبهؤلاء وبزينة العيد خرجت المدينة من صمتها الموحش بعض الشيء وكان أعيان السودانيين في جببهم الحمراء والزرقاء المطرزة بالذهب وسيوفهم المموهة أغمادها بالذهب كذلك أكثر ما خلع على مظهر العيد بهجة وزينة

في الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم استقبل الحاكم العام وقليل من رجاله اللورد لويد مندوب انكلترا السامي الذي وصل ساعتئذ محطة الخرطوم قادماً من مصر ثم قصد وإياه سرايه ولم يكن في انتظاره بالسراي غير عشرة من أكابر أعيان السودان صافحهم المندوب السامي وقرينته ثم صعدا إلى غرفهما

ولما كانت الساعة الرابعة قد حددت موعداً لحفلة الشاي حيث يقدم المندوب السامي أوسمة الشرف لأربابها هرع المدعوون الى سراي الحاكم العام، حوالي هذه الساعة، ومنهم جماعة « الرسميين» ارتدوا ملابسهم الرسمية وتقلدوا نياشينهم وأوسمتهم، ومنهم أعيان السودان تقلدوا فوق عباآتهم الحمراء أو الكحلية المطرزة بالقصب الذهب سيوفهم الموشاة الأغماد بوشي الذهب والفضة، ومنهم غير الرسميين وغير أعيان السودان من ذهبوا في ملابس كل يوم وبذلك

كانت حديقة السراي معرضاً لأكثر ما يمكن أن يتصوره الخيال من الازياء تبايناً واختلافاً فكنت ترى الردنجوت والطربوش لبسه الموظفون في الحكومة المصرية من المصريين والانكليز وقد حلى كثيرون منهم صدورهم بالنياشين المصرية وكنت ترى ملابس موظفي حكومة السودان المدنيين اتخذت من القماش الابيض وفصلت على صورة « الجاكت » والعمامة والقفطان والجبة ترداها الموظفون الشرعيون كالقضاة والمفتي وواحد أو اثنان غير هؤلاء والفراك أو السموكن ومعها القبعة العالية على بعض أعيان السوريين أو الاروام من التجار والمقيمين بالسودان . وجبب حكومة السودان الرسمية على أعيان السودان وبين هذا الجمع المتقمص بأردية المقابلة عدد كبير في الزي العادي على مختلف أشكاله وألوانه

تزاحمت هذه الازياء المختلفة المتناقضة المجتمعة في هذا المكان وجعلت تتدافع نحو ساحة السراي ذلك ان الحاكم العام والمندوب السامي جلسا الى منصة فوق هذه الساحة وجلس حولهما ضيوفهما كذلك جلس عدد كبير من الموظفين والاعيان الذين تقرر الانعام عليهم بالأوسمة الى جانب من الساحة المحاطة بدرابزون والمرتفعة فوق أرض الحديقة بدرجات وكان الحاكم العام قد وقف يتلو البرقية التي أرسل بها الى جلالة ملك انكلترا بالنيابة عن أهالي السودان ورد جلالة الملك جورج عليها فلما أتم تلاوته وترجمها فصيلة

معتي السوداں ورع المدوب السامي الأوسمة على أر ىابها ومشاهدة دلك كله هي التي أدت الى دلك التدافع ىالمناكب بين كل تلك الاربياء

لدلك ما كادت هده المراسم تنتهي حتى اىفرط عقد المناكب المتراصة وانقلب مدها ىحو ساحة السراي حرراً في انحاء الحديقـة الواسعة وىرل المنعم عليهم من عليتهم وانخرطوا في سلك المدعوين تميرهم أوسمتهم وأحدت ىروهم الى الناس شيئاً من الحركة سببها اسراع الناس اليهم يهنئونهم بما حاروا مں ثقة عالية فكانت الايدي تتصافح والشفاه تبتسم وحدق عيون المنعم عليهم يلمع بمعاني الغبطة والرضا وتتحصص جفونهم أحياناً في صورة التواضع والحياء مما تتبهج به آدانهم من عبارات تقدير المهنئين وتمنياتهم « الخالصـة » لهم دوام الرفعة ومثوبة رضاء الحاكم على ان نظر الغريب عن الديار كان يسترعيه ما علق على صدور أعيان السودان الصالحين من أوسمة صيغ اكثرها صلباناً ما كانوا ليرضوا أن تمسها أيديهم لولا ما لها من معنى التقدير والتشريف ثم ارداد العقد انفراطاً وقصد كل الى مائدة من موائد الشاي المعترة على نظام طريف في انحاء المتنره الجميل .

كان أهل السودان في أريائهم المطررة اكثر استرعاء للنظر من كل من سواهم دلك بأنهم أهل البلاد وروح هدا الجو الصحو الدي يظللنا على ان استرعاءهم لنظر الاوربيين كان راجعاً لغرابة

أريائهم وحالهم اكتر مه الى أي معنى نسابي حاص أما الشرقيون عامة وأبناء وادي النيل حاصة فكان للمعنى النسابي عليهم اكبر الأثر. ولا عجب. فبين العربي والسوداني من الفوارق في اللون والناس واللغة والدين والعوائد والعقائد ما يجعل السوداني امام الاوربي لغزاً تتلهى عيناه بصورته الظاهرة ويعجز ادراكه عن استكناه ما تنطوي عليه روحه ونفسه الدخيلة من هزات ينبعث منها تقديره للحياة وغايته منها وفهمه معناها أما الشرقي فيدرك غير قليل من هذه الهزات الدخيلة لأنه يشارك السوداني فيها كما يشاركه في أصل حسه وفي لغته وعاداته وأما ابن النيل فيسترعي السوداني نظره كما يسترعي نظرك قريب أو أخ غاب عنك سنين طوالاً فاذا رأيته ورأيت أبناءه وأقاربه شعرت بين أضالعك بشوق وحنين وحدقت عيناك بهؤلاء الأبناء والاقارب الذين لم ترهم من قبل ولكنما يجري في عروقهم الدم الذي يجري في عروقك وتلذعهم الالام التي تلذعك وتنبض قلوبهم بالآمال التي ينبض بها قلبك

أحاط ببعض موائد الشاي جماعة من هؤلاء الاعيان من أهالي السودان وكان معي صديق سوداني عرفته يوم نزلت الخرطوم له بكل هؤلاء الاعيان صلة ومعرفة ، فسار وإياي يحدث بيني وبينهم من التعارف ما يسمح به المقام ولقد شعرت وأحسبهم شعروا اثناء هذا التعارف القصير باحساس الاحتياط والحذر الذي لاحظته على

اخواننا المصريين من قابلونا في حلفا وفي العطبرة وفي الخرطوم فلم يرد ما تبادلنا وجماعة أعيان السودان في حديقة سراي السير جوفري آرشر حاكم السودان العام على عبارات التحية البسيطة وربما كانت هذه مبالغة في الحذر لا يقتضيها الموقف لكني كنت من ضيوف حاكم السودان العام فكان واجباً أن أرعى لهذه الضيافة كل حقوقها .

وجلست الى مائدة جلس اليهـا السيد احمد الميرغني وفضيلة الشيخ اسماعيل الأزهري مفتي السودان وجماعة آخرون كانوا كلهم مثال الرقة وحسن الضيافة وفيما نحن جلوس أقبل السير السيد علي الميرغني فقام الجمع تحية له واجلالا وأقبل كل من الحاضرين عليه يقبل يده وجلس الى جانبي في وقار وهيبة وفيما هو جالس كان أعيان السودان يقبلون عليـه ويجثون على يده يقبلونها ظاهرها وباطنها ويرجونه الرضى عنهم وحسن الدعاء لهم وكانوا كذلك يقبلون يد أخيه السيد احمد لكني أشهد أني ما رأيت إيماناً كهذا الذي رأيته مرتسما على وجوه هؤلاء الناس بادياً في نظراتهم متجلياً في كل حركاتهم حين اقبالهم مسرعين في خشوع واجلال يقبلون يد السيد علي وينظرون من طرف كسير نظرة كلها الايمان والاجلال ورجاء الرضى وحسن الدعاء ومن هؤلاء الاعيان شبان تلوح عليهم مظاهر القوة والاعتداد بالنفس ، ومنهم كهول وشيوخ ترى على

عوارضهم من الشيب بياضاً في سواد ، ولكل من هؤلاء الشبان والشيوخ سلطان على من يدينون له من القبائل والعشائر لكنه يتقدم بهذا السلطان أمام السيد علي وهو مؤمن بأن كلمة الرضى من لدنه أقوى من كل سلطان

وللسيد الميرغني احترام خاص لمكانته هذه عند النازلين في السودان من كل الاجناس والطوائف ويزيد في هذا الاحترام ماله من صفات تملي على من يتصل به اكباره وحسن تقديره وهو نحيف قصير القوام دقيق تقاطيع الوجه تنم عيناه ببريقهما الشديد عن كثير من الذكاء والدهاء وتطوق ثغره العربي الرقيق الشفاه ابتسامة دائمة تجعل محياه الجذاب دائم الاشراق وتعلو جبينه قلنسوة أقرب في صورتها الى القلبق التركي القديم الذي كان يلبسه انور باشا وإن لم تكن سوداء مثله ،بل اجتمعت عليها صوف من الوان سوداء ومذهبة متوازية متقاطعة ويحيط بالقلنسوة عمامة يصعب تحديد لونها لكن لها مع لون العمامة اتساقا وتجاوبا حسناً أما قفطانه وجبته فعلى صورة ما يلبسه شيوخنا مع شيء كثير من الاحتشام في الوانها ولعله أصغر من رأيت من أعيان السودانيين جسما وإن كان اكبرهم مقاماً وكان لمقامه السامي في غنى عن أن يتحلى بأي وسام من الأوسمة خصوصاً بعد ما أنعمت الحكومة البريطانية في هذا اليوم بمثل لقبه على كل من السير السيد عبد الرحمن المهدي والسير الشيخ علي التوم .

ومع ما كان باديًا من الحبور والبهجة على المنعم عليهم بالأوسمة والرتب من أعيان السودان وموظفي حكومته فلا ريب أن اشد من كانت علائم الغبطة بادية عليهم في هذه الحفلة هم الانكليز سواء منهم من كانوا في حكومة السودان ومن كانوا ضيوفًا أو سائحين . ولم يستطع الصحفيون الذين كانوا يدورون في انحاء المكان أن يخفوا ابتهاجهم مما كان أمامهم من مظاهر عظمة الامبراطورية وتفوقها ولهم الحق وهم يرون ما لدولتهم من سلطان ومجد أن ينال كل منهم من ذلك السلطان والمجد متاعه

أما المصريون فكان يخالج نفوسهم شعور منهم يختلط فيه الأسف بالألم بتأنيب الضمير وكنت تراهم يسير كل منهم منفرداً أكثر الوقت وينظر الى ما حوله بعين الغريب الحائر ولم يشذ اثنان من الباشوات المصريين نزلا ضيوفًا بسراي الحاكم العام عن هذه القاعدة

وكذلك كنت ترى اختلافًا وتناقضًا في احساس المجتمعين في هذه الحفلة كما كنت ترى اختلافًا وتباينًا في أزيائهم

* * *

وحوالي منتصف الساعة السادسة نزل لورد ولادي لويد من ساحة السراي الى الحديقــة ومعهما حاكم السودان العام وبعض الموظفين ، وجعل اللورد وقرينته يطوفان بالحاضرين عمومًا وأهل

السودان خصوصاً يتعارفون بهم ويصافحونهم يداً بيد قال صديق :

– لعل من بين السودانيين من يرى زيادة في الاحترام واكرام الوفادة أن يهز يد اللورد واللادي اكثر من مرة ولو كثر هؤلاء المبالغون في الاحتفاء لشق ذلك على اللادي بنوع خاص

فأجاب أحد الحاضرين

– ان كل شيء ياصاح مستحب مادام فيه خدمة للامبراطورية ولادي لويد على رقتها واتصالها بالعائلة المالكة في انكلترا تسعد بمصافحة ثمانمائة يد ما دام في ذلك للامبراطورية سعادة وعظمة وإذا شق عليها المبالغون في الاحتفاء فتلك مشقة يوم له أيام هناء وراحة بعده وما مشقة يوم في نظر الانكليزي الى جانب مصلحة الامبراطورية الا تمام السعادة

كانت الشمس قد انحدرت الى المغيب فبدأ الناس ينصرفون جماعات بعضها إثر بعض وانصرفت ومن معي ميممين أحد الأندية ونحن نذكر عيد الملك يقام في الخرطوم تذكاراً لمرور جلالة ملك انكلترا وامبراطور الهند بها وفيما نحن في حديثنا جاءت التفاتة من أحدنا الى أعلى سراي الحاكم فرد طرفه الينا وقال

– على كل حال فما يزال العلم المصري خفاقاً الى جانب العلم البريطاني فوق السراي . وفي هذا لنا بعض العزاء عن أن يكون لملك مصر في الخرطوم عيد كعيد ملك انكلترا

حكومة السودان في الخرطوم

في مقدمة كتاب لورد كرومر المعنون « عباس الثاني » عبارة يحسن الوقوف عليها لحسن تقدير وسائل السياسة البريطانية في بلوغ غاياتها وحسن ادراك ما تبديه حكومة السودان في الوقت الحاضر من مظاهر النشاط قال اللورد

« ان حجر الزاوية في سياسة مصر والسودان أن نضع محل الاعتبار أن ليس ثمة رابطة بين الحاكم والمحكوم عند انعدام روابط الجنس واللغة والدين والعادات الاجتماعية إلا المصالح المادية وأعظم هذه المصالح خطراً ما كان متعلقاً بالاعباء المالية لذلك تدعونا كل الظروف السياسية الى أن نخضع جميع الاعتبارات الى ضرورة عامة هي الحرص على تخفيض الضرائب وعلى المسئولين عن ادارة مصر والسودان أن يعتمدوا حد الاعتماد على أنفسهم في تنفيذ سياستهم على القاعدة المشار اليها فقليل من يعضدهم في هذه السياسة ذلك بأن الاقتصاد ليس أمراً مرضياً عند الناس وكثير من يوجه اليهم جارح النقد وهم لا يستطيعون الاعتماد الى حد كبير على تأييد الرأي العام المصري أو البريطاني فالانكليز يميلون عادة الى الأخذ بما سبق الأخذ به في انكلترا من أعمال وتجارب وقد تزايدت

نفقات الدولة عدهم احيراً الى حد كبير وتقات الاعباء العامة الملقاة على عاتقهم الى حد كانوا يحسبونه مستحيلاً مد وقت قريب وكان من أثر دلك أن ساء تقدير الرأي العام للاقتصاد وان تلد الشعور القومي الى حد ما ىاراء ادارة الشؤون الماليــة في البلاد الخاضعة لانكلترا

« ولن يمنع كثير من كبار الساسة الانكليز وان تمنع الصحافة القوية السلطان عن مواصلة جهودهم في الحث على انهاض التعليم ونشره في مصر إذ يرونه الأساس الأول لبناء الحكم الذاتي. أما أنا فلا أظن ان مثل ما يلقى في المدارس والكليات من تعليم كان ليعد المصريين يوماً ما لحكم أنفسهم ما لم يحوروا طابعهم القومي مما لا يتم الا تدريجاً وهذه ليست نقطة البحث الآن فانما اريد أن أبحث في نفقات التعليم وأن أبين سوء الرأي في التوسع فيه الى حد فرض ضرائب باهظة

« وثمت هجمات من نواحي أخرى يجب صدها فقــد يلح الاداري الغيور ، الذي يقدر ما يستطيع القيام به من خير ، في زيادة الطرق والكباري والمستشفيات وسائر معدات المدنية الحديثــة ثم يجهل ، مع الحاجه ، النتائج البعيدة التي تترتب على ما تحتاج اليه سرعة تحقيق هذه المشروعات من طائل النفقات

«لذلك يحسن بالساسة المسؤولين عن شؤون مصر والسودان ،

بالغاً ما بلغ عطفهم على هده المشروعات حين مجرد النظر الى م
أن يبتعدوا عن الساسـة الخياليين ابتعادهم عن رجال الادا
الدواوين،وان يرجئوا ما يستدعي طائل النفقات من تلك المشر‍ـ
التي تستهويهم حتى يثقوا بأن موارد الدولة تحتملها دون أن يثقلوا
كاهل الجمهور بالضرائب ليشجعوا انتشار التعليم وخصوصاً التعليم
الصناعي وتعليم الأبنات وليشجعوا كذلك المشروعات العامة وغيرها
من أسباب التقدم على أن يكون هذا التشجيع بمقـدار لا يقتضي
الالتجاء الى فرض ضرائب جديدة ثقيلة »

ليس بين الحاكم والمحـكوم ، عند انعدام روابط الجنس واللغة
والدين والعادات ، غير الرابطة المادية هذه كلمة لورد كرومر التي
تلخص كل ما جاء في العبـارة التي نقلناها بل التي تلخص الى حد
كبير سياسة انكلترا في مستعمراتها وفي البلاد التابعة لها وهي التي
تجعل لهذه السياسة الاستعمارية البريطانية امتيازاً وتفوقاً على غيرها
من سياسة الدول الاستعمارية الاخرى فليس من أغراض السياسة
البريطانية الاساسية أن تنتشر الثقافة الانجلوسكسونية في البلاد التي
تحكمها وليس من غرضها أن تنتشر فيها مبادىء الثورة الفرنسية ولا
أن تحمي فيها الهيآت الدينية المسيحية كل ذلك قد يحدث بطبيعة
تفوق النفوذ الانكليزي لـكنه ليس غرضاً أساسياً مقصوداً لذاته.
انما الغرض الاساسي هو تلك الروابط المادية بين انكلترا وسائر أجزاء

الامبراطورية ولتكون هذه الروابط متينة مأمونة العواقب يجب أن لا تكون فائدتها لانكلترا وحدها ، بل يجب أن تشعر البلاد المحكومة بأن لها من ورائها فائدة محسوسة اول مظاهرها نقص النفقات العامة نقصاً يترتب عليه تخفيض الضرائب وزيادة رفاهية المحكومين زيادة تشعرهم الطمأنينة الى حاكميهم

وقد اتبعت هذه السياسة في مصر بدقة تامة مدة وجود لورد كرومر بها ويمكن أن يقال انها اتبعت الى ما قبل الحرب العامة . لكن هذه الحرب أدت الى انقلاب كان من وراءه أن غير المصريون من طابعهم القومي على ما ورد في عبارة لورد كرومر . وكان من وراء ذلك ان اعلن استقلال مصر أما السودان وحكومته في الخرطوم فما تزال السياسة الجارية فيه هي هذه السياسة التي رسمها لورد كرومر في كلمته السابقة

فمع ان كثيرين من المقيمين بالخرطوم يشكون من فداحة الضرائب التي يؤدونها ، والتي تبلغ ربع قيمة ريع المباني القائمة بها ، تعمل حكومة السودان على ان تكون الضرائب في سائر انحاء البلاد مخفضة حتى لا يشعر أهل السودان بثقلها وليس يضير السياسة البريطانية أن تكون ضرائب الخرطوم فادحة وأكثر المقيمين في الخرطوم ، كما رأيت من قبل ، ليسوا سودانيين ، بل أكثرهم موظفون وتجار من المصريين والسوريين والأروام وغيرهم وهؤلاء لا شيء من الخطر في أن تعني

الحكومة تخفيض الضرائب التي يدفعونها ويكفيهم أن تعنى بتوفير كل اسباب الراحة والطمأنينة لهم

وتخفيض الضرائب بالنسبة لأهالي السودان أنفسهم موضع عناية دائمة وقد عهد بها وبنظام أعباء السودان المالية وميزانية ايراداته ومصروفاته الى لورد تستر أحد أكابر الاقتصاديين والماليين الانكليز وبرغم ما أبداه من ميل الى ترك هذا المنصب الشاق فان رجاء حكومة السودان اياه أن يبقى لمصلحة السودان ولمصلحة الامبراطورية كان أكبر على نفسه أثراً من ميله الخاص، فبقي بالخرطوم ينفق أكثر بكثير من المرتب الضخم الذي يتقاضاه راضيا بالحياة في هذه البلاد القاصية ليخدم الامبراطورية وليخدم السودان معا

تخفيف عبء الضرائب يترتب عليه نقص في ايراد الخزانة العامة فاذا لم يقابل هذا النقص بموارد أخرى تدر ضرائب مباشرة أو غير مباشرة تعذر على الحكومة القيام بواجبها . وميزانية السودان تزداد عاماً بعد عام بسبب الموارد الجديدة التي ما تفتأ حكومة السودان تسعى لخلقها لتكفل استقلال السودان عما كان من قبل في حاجة اليه وما كانت مصر تؤديه له وقد يدهشك ان تكون زيادة السكان من بين هذه الموارد الجديدة، كما ان زيادة نشاط السكان من بين هذه الموارد ايضاً وهاتان الزيادتان عنيت حكومة

السودان مند رمان نعيد نتوفيرهما من طريق توفير اسباب الصحة في البلاد فقد كانت حمى الملاريا مما يفتك بالسودانيين فتكاً دريعاً وما يضعف فيهم اسباب النشاط وما تزال هده الحمى منتشرة في نعض انحاء السودان لكن الحكومة قاومتها في مناطق كثيرة مقاومة شديدة انتحت ابادتها في هده المناطق ابادة تامة وما تزال الحرب المعلنة على الملاريا ناشبة وما تزال حكومة السودان تعمل على مطاردتها لمضاعفة عدد السكان ولمضاعفة نشاطهم

كدلك عنيت الحكومة بمحاربة الزهري المنتشر في السودان انتشاراً مروعاً والدي يحيي على الأعقاب حمايته على الجيل الحاضر. وانك لتعجب أشد الاعجاب بما تندي الحكومة من نشاط وعناية في هدا السبيل فهي تعالج المرضى بأجر زهيد الى حد يجعله في حكم المجان وهي تنشر الدعوة لهدا العلاج في طول البلاد وعرضها بمختلف الوسائل وأطباء الحكومة من السوريين وغير السوريين المنتشرين في اقاصي هده البلاد الشاسعة يعاونون الحكومة المركزية بالخرطوم في هده المجهودات خير معونة

ومن طريق زيادة السكان وزيادة نشاطهم ترجو الحكومة أن تجد اليد العاملة بمقدار كاف لنشر زراعة القطن في البلاد . فملايين الأفدنة في الجزيرة الواقعة بين النيلين الأزرق والأبيض صالحة لانتاج القطن كما ان أراض واسعة اخرى صالحة لانتاجه .

وادا كانت التحارب التي تمت في الحريرة الى اليوم قد أسفرت عن نقص تدريجي في المحصول بسب الآفات التي تصيبه حتى أصبح الفدان الذي كان ينتج اول زرعه خمسة قناطير ونصف القطار من صنف السكلاريدس لا ينتج إلا قنطارين وربع القنطار بعد اربع أو خمس سنين من زراعته فان شركة الحريرة وحكومة السودان تأملان التغلب على هذه الآفات بالوسائل العلمية ومتى كان ذلك ممكناً فمشكلة اليـد العاملة هي المشكلة الـكبرى والتغلب عليها لا يكون إلا بزيادة السكان وزيادة نشاطهم

ومسألة آفات القطن هي الآن من المسائل التي تستنفد من حكومة السودان عناية كبرى وقد تخصص للبحث في هذه الآفات وعلاجها أربعة عشر عالمًا نباتيًا من خيرة علماء الانكليز في هذا الامر يقيمون بالخرطوم كما ان في لندرة جمعية علمية نباتية تتضامن وهؤلاء العلماء في عملهم وأبحاثهم فإذا نجح هؤلاء في مقاومة آفة القطن نجاح قلم الصحة في مقاومة الملاريا وازهري كفات الحكومة محصولا وافراً من القطن يحقق الى حد كبير ما ترمي السياسة الامبراطورية اليه من رغد السودانيين وفائدة انكلترا فائدة كبرى

وفي انتظار تحقيق هذه الغايات تعمل الحكومة لاكثار الماشية وجعلها من مواد التصدير ذات الايراد كما تعمل لترويج حاصلات السودان ترويجًا يتفق ومصلحة انكلترا

ولكي تكون هده المجهودات منتجة يجب أن يكون الأمن شاملا البلاد وأن تكون في سلم بعضها مع بعض وهدا هو موضع عناية الحكومة الأداري وهي في سبيله لا تلاقي من المشقات ما تلاقيه حكومة مقيدة بأنظمة خاصة ترمي الى حماية حرية الأفراد في صورها المختلفة فنظام الأحكام العرفية ما يزال هو النظام السائد في السودان وكلمة الحاكم العام هي الكلمة العليا النافذة

* * *

ويبدو في مصالح حكومة السودان المختلفة نشاط كبير فأول ما نزلنا الخرطوم في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم السبت ١٩ يناير سنة ١٩٢٦ دعا مدير المخابرات — وهو كمدير الأمن العام في مصر — الصحفيين الى اجتماع عنده الساعة السادسة وذهبت في الموعد بعد أن اجتازت السيارة بي شوارع ترابية ، وصعدت في بناء قليل الارتفاع قليل الوجاهة والمتانة على سلم ضيق من حجر الجبل حتى انتهيت الى غرفة المدير فألفيت الصحفيين جالسين على مقاعد أدركت لأول ما رأيتها أنها أحضرت خصيصاً لهذه الغاية وان المكان ليس به عادة غير مقعد المدير وكان هناك رئيس مصلحة التلغرافات فلما انتظم عقدنا شرح مدير المخابرات برنامج أيامنا في الخرطوم وبرنامج حفلة افتتاح الخزان فيوم الأحد للراحة من عناء السفر وليصنع كل به ما شاء ويوم الاثنين عيد الملك والصحفيون مدعوون فيه لحضور

حفلة الشاي ويوم الثلاثاء لا عمل فيه أما الاربعاء ففي مساءه يسافر الجميع الى مكوار حيث يحضرون الحفلة ليعودوا الى الخرطوم صباح الجمعة ويوم الاحد يسافرون قافلين الى حلفا فالقاهرة

على أن الغرض من الاجتماع عند مدير المخابرات لم يكن مجرد معرفة البرنامج ، بل كان للتفاهم على طريقة ارسال البرقيات من مكوار ومن بركات ، من غير ان يرتبك الخط بكثرتها ، ومن غير أن يرتبك الصحفيون اذا اضطروا الى الذهاب لمكاتب التلغراف والى دفع الأجور وانتهى الحال بالاتفاق على ان تعطى الخطب التي ستلقى في الاحتفال ظهر الأربعاء على أن لا تذاع إلا بعد القائها ظهر الخميس وكان ذلك يسيراً بأعطاء الأشارة الى مصلحة التلغرافات في القاهرة وفي لندرة كي لا توزع الخطب الا بعد صدور أوامر أخرى . واتفق كذلك على أن يرسل كل مندوب من مندوبي الصحافة عدداً معيناً من الكلمات لا يتعداه حتى لا يزدحم الخط وتتأخر الرسائل ، وعلى أن يدفع كل صحفي تأميناً بالخرطوم ولا يضطر الى الذهاب بنفسه الى مكتب التلغراف في مكوار وبركات بل ترسل هذه المكاتب بمندوب من قبلها يتلقى التلغرافات من الصحفيين

وفي صباح اليوم التالي ذهبت اقابل رئيس مصلحة التلغرافات لأدفع التأمين ولنتم التفاهم على ما اتفقنا بحضرة مدير المخابرات عليه وكان معي صحفي ذهب لمثل الغاية التي ذهبت اليها ، فأنعيا عرفة هذا الرئيس

الانكليزي غاية في البساطة ولم نجد عنده ما نجلس عليه مما اضطره لاستعارة مقاعد من الغرف المجاورة . ولم يطل بينا الحديث ولم يعد الغاية التي قصدنا اليه لقصائها ، ففي دقائق نادى اليه الموظفين المختصين فجاؤا لنا بالتذاكر الصحية ، وتسلموا مبلغ التأمين الذي أردنا دفعه وتركنا المكتب بعد دقائق معدودة وعلى أثر خروجنا أخذ أصحاب المقاعد مقاعدهم .

ونزلنا من عندهم فمررنا برئيس مكتب بريد الخرطوم،وهو مصري من الاقباط له بالسودان أكثر من عشرين سنة،ومع ما قابلنا به من البشر والحفاوة لم نجد عنده هو الآخر مقاعد نجلس اليها ولما لم يكن لنا عنده عمل خاص استأذننا وظل منصرفاً لعمله مكباً عليه وسألته عن ساعات العمل فأدا متوسطها في اليوم بين ست وثمان لكنها مع هذا الانكباب على العمل تكفل الخارج حظ منه عظيم

وهذا النشاط تشهده في غير هذين من مصالح حكومة السودان ولعل النظام العرفي الذى تخضع له هذه البلاد والذي يجعل كلمة الحاكم العام العليا في كل شيء له أثره في هـذا النشاط الدائم ولئن صح هذا لكان مصداقاً لأن المبادىء المطلقة لا وجود لها في الحياة فليس شيء خيرا مطلقاً وليس شيء شراً مطلقاً ، بل في كل شيء من الخير والشر والنفع والضر نصيب ومن استطاع أن يغلب جانب الخير في شيء من الأشياء أو في نظام من النظم فذلك العامل الحكيم

على ان هذا النشاط الذي رأيت لا يتعدى ما تقضي به الروابط المادية التي أشار اليها لورد كرومر في كلمته التي صدرنا بها هذا الفصل. فكل ما سوى ادارة شؤون البلاد والعمل لزيادة انتاج اهلها لا يظهر له في حكومة السودان بالخرطوم أثر كبير وقد رأيت في العطبرة كيف تقف المدارس التابعة للحكومة عند تخريج صغار الموظفين ومن يقومون ببعض اعمال الدولة الحكومية كالكتابة والتلغراف وكيف تقف مدرسة الامريكان عند تعليم الابناء بما لا يزيد عن مقابل السنة الثالثة الابتدائية وعناية الحكومة الرئيسية في الخرطوم بشؤون التعليم لا تتجاوز مثل هذا الذي رأيت عند العطبرة كثيراً ففي الخرطوم حقاً كلية غردون وبها مدرسة للطب انشئت حديثاً وبنيت على طراز كليات انكلترا لكن التعليم في كلية غردون لا يتعدى التعليم الثانوي على نظامه القديم وبرامجه القديمة في مصر، أي انه لا يتعدى أن يكون وسيلة لتخريج موظفين أرقى من الموظفين الذين تخرجهم مدارس العطبرة وغيرها من البلاد الأخرى في السودان ومدرسة الطب لا تزال مدرسة حديثة افتتحت منذ عام واحد وطلبتها لا يزيد عددهم على اثنى عشر طالباً وما يزال نظام تعليمهم غير محدد ، وهو يجب أن يتفق مع السياسة العامة التى ترمي إلى اقامة العلائق المادية الحسنة بين الحاكمين والمحكومين ليس غير

وقد يكون لحكومة السودان العذر اذا تشبثت بهذه السياسة في

السودان فالسودان بلاد واسعة مترامية الأطراف وأهلها ما يزالون على جانب من السذاجة عظيم وميزانيتها لا تتجاوز الى اليوم خمسة ملايين برغم ما بذل من العناية لتنظيمها وزيادة ايراداتها وما تزال طرق المواصلات فيها قليلة برغم سكة الحديد التي انشأها الجيش المصري بين حلفا والخرطوم وبرغم المنشآت التي تمت بعد ذلك فوصلت ما بين الخرطوم والأبيض وما بين العطبرة وبور سودان وكسلا وما لم توطد الحكومة أركان الأمن في البلاد وتشعر المحكومين بأنها تجمع في معاملتهم بين السلطان عليهم والبر بهم فليس يسيراً عليها ان تحقق مصلحة الامبراطورية ومصلحة السودان بالتبعية لها

فأما شعور المحكومين بسلطان الحكومة عليهم فمظهره القوة المسلحة التي تغلبت على التعايشي وفتحت السودان واخضعت عصاته ولئن كانت هذه القوة الأولى مصرية فالانكليز يعتقدون أن وجودهم على رئاستها يجعل أهل البلاد يعتقدون أنهم وحدهم هم أصحاب الكلمة سواء أبقيت هذه القوة في البلاد أم اخرجت منها وأما بر الحكومة فمن مظاهره ما قدمنا من عنايتها بالسكان وصحتهم ونشاطهم وتخفيضها الضرائب المباشرة عليهم ، كما ان من مظاهره هذه الألقاب وكسى التشريفة التي وقفت على شيء من أمرها يوم عيد الملك والتي يحرص زعماء السودان ورؤساء قبائله عليها حرصاً شديداً

يدل على انها ذات تأثير شديد على الذين يقعون تحت رئاستهم أو زعامتهم من السودانيين روى لي كثير من الموظفين بحكومة السودان ان الحكومة اذا غضبت على أحد هؤلاء الزعماء استردت منه كسوته ولا تسل عن المساعي التي يبذلها هذا الزعيم في سبيل استعادة هذه الكسوة ، ولا تسل عن العهود التي يقطعها على نفسه متى عادت الكسوة اليه ثم ان من هذه الكسي زيًا قديمًا أحمر اللون عدلت عنه الحكومة الى الزي الكحلي والكسوة اذا بليت ردها صاحبها الى الحكومة فأبدلته منها غيرها وقد لوحظ ان من اصحاب الكسي الحمراء من يفضل ارتداء القديم منها على الزي الجديد لأن الجديد كحلي ولأن الأحمر أكثر بهجة ولعله أشد أثراً على المرؤوسين

وليكون الناس أكثر شعوراً بر الحكومة بهم تنظم الحكومة الدعوة في انحاء البلاد للاشادة بهذا البر ولتذكير الناس عما كانوا خاضعين له من قبل من ألوان الاضطهاد وما كان ينتابهم في الماضي من مظالم ومغارم وعلل وما كانت الصحافة قليلة الجدوى في بلاد قل فيها من يقرأ ويكتب كانت الدعوى الشفوية على لسان موظفي الحكومة والمتصلين بها من الذين يتكلمون لغة البلاد ، سواء منهم من كان من أهلها ومن كان أجنبيًا عنها ، هي العمدة في هذه الدعوة التي تساعد الى حد كبير على تأييد النظام والطمأنينة في ربوع السودان

على أن بعض الدعاة يغلون في دعوتهم الى غير حد واذا صح ما سمعته من أن احدهم ينسب وجود مرض الزهري في السودان الى أيام دخول العرب فيه منذ قرون ماضية كان ذلك أدل ما يكون على المبالغة والاغراق فيها . فان هذا المرض–الذي يسميه كثير من أهل الريف في مصر « بالافرنجي » إشارة الى دخوله مع الافرنج أيام الحملة الفرنسوية في أواخر القرن الثامن عشر– لم يعرف في مصر ولا في السودان قبل ذلك التاريخ دع جانباً اغراق الدعاة في تشويه الحكم المصرى فى السودان فهذا ما سمعته من كثير من كتاب الانكليز وخطبائهم في انكلترا وهذا ما سنعود اليه في فصل مقبل .

على ان عدم جدوى الصحافة في بلاد كالسودان لم يمنع حكومة السودان منذ الفتح من أن تشمل بعنايتها جريدة كانت من قبل ذات اتصال بجريدة المقطم فى مصر تلك «حضارة السودان» وقد ظلت هذه الجريدة متصلة بالمقطم الى أن اتجه نظر الحكومة الانكليزية لنزع السودان من نفوذ مصر من حينئذ استقلت حضارة السودان وصارت متصلة بحكومة السودان وعهد بتحريرها الى واحد من أهالى السودان الذين تعلموا فى الأزهر

وهذه خطوة فى تمهيد السياسية البريطانية التي تقضي بأن تكون وظائف حكومة السودان للسودانيين قدر المستطاع وخطوة ومثلها أن حرمت الحكومة على غير السودانيين الالتحاق بكلية غردون بعد ان

كان المصريون والسوريون يلتحقون بها والغرض من ذلك أن يزداد عدد المتخرجين من هذه الكلية من أهالي البلاد لتسند اليهم الوظائف الصغيرة في حكومة بلادهم لكن هذه ما تزال خطوات ضيقة. وما يزال أكثر موظفي حكومة السودان من المصريين ومن السوريين .
ورغم ما كان من إخراج عدد كبير من الموظفين المصريين بعد أن نشرت حكومة العمال البريطانية الكتاب الأبيض الذي صدر في ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٢ بتوقيع رئيسها مستر ماكدونالد على أثر المفاوضات التي جرت بينه وبين رئيس الحكومة المصرية في ذلك الوقت سعد باشا زغلول وبعد الأنذار الانكليزي الذي وجهت به حكومة المحافظين الانكليزية في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ على أثر مقتل حاكم السودان العام السير لي ستاك باشا — برغم ذلك فما زال في خدمة حكومة السودان عدد عظيم من المصريين الذين لم يظهروا ولم يكن لهم دور في الحركات السياسية التي قامت في السودان سنة ١٩٢٤ وبعض هؤلاء المصريين مسلمون وأكثرهم مسيحيون .
أما السوريون فما زالوا في خدمة حكومة السودان كما كانوا من قبل وما زالت الثقة بهم أكيدة مطمئنة وهم لا ريب أهل لهذه الثقة لأنهم يقومون بخدمة الحكومة القائمة خير قيام ولم لا وليست لهم ولا لبلادهم في السودان مطالب سياسية تحرك منهم عصباً أو عاطفة يخشى أن يكون لها في السودان أثر ، وليست تتحرك أعصابهم ولا

عواطفهم إلا لما يصيب بلادهم . فهم دائمو التحدث عنها والحنين لها ، كما أن كثيرين منهم ما يفتأون يمدونها بما يوفرون على انفسهم إمدادها به

وهؤلاء الموظفون في حكومة السودان من السوريين والمصريين يعملون بما يعمل به الرؤساء الانكليز من نشاط وهمة وهم ينفذون السياسة التي يرسمها هؤلاء الرؤســـاء بذمة ودقة . وهذه السياسة تتلخص فيما نقلناه في صدر هذا الفصل من كتاب اللورد كرومر تحسين العلاقات المادية بين الحاكمين والمحكومين وهي من غير نزاع خير سياسة يمكن اتباعها في بلاد لا تجمع الحاكم والمحكوم فيها رابطة من جنس أو لغة أو دين

يوم بأم درمان

كان ذلك يوم الثلاثاء ١٩ يناير سنة ١٩٢٦ قمت مبكراً فبصرت بأشعة الشمس تطل من خلال النافذة المقفلة طول الليل وكأنها يد أم رؤوم تملس على ابنها بحنان وعطف كي توقظه من نومه. وسمعت وما أزال ناعماً بدفء الغطاء اصوات العصافير في حديقة الفندق وكلها البهجة بشرق الشمس وبعود النهار والنور وجاء الخادم بالشاي والبسكوت فطلبت اليه أن يحضر طعام الافطار بالغرفة حتى لا أضيع الوقت وكي أدرك وصديقي ترام الخرطوم الذي يقوم في منتصف الساعة التاسعة قاصداً المقرن لتقلنا الباخرة بعد ذلك عبر النيل الى شواطيء أم درمان

وكنا عند المقرن حوالي الساعة التاسعة. وانتقلنا من الترام الى الباخرة وانتقل معنا كثيرون من السائحين ومع بعضهم عربة اتوا بها ليطوفوا أم درمان فيها ، كما انتقل مع جماعة من الأهالي الحمر والدواب وظل هؤلاء في الطابق الأسفل بينما صعد الدين يدفعون أجر الدرجة الأولى الى الطابق الأعلى وتحركت الباخرة على هون وفي هدأة وسكون بعد ما انقضى ما كان لصفيرها قبيل تحركها من رفير في الهواء وشهيق

واستدارت الناحرة فادا أم درمان ما ترال في الححب وإدا أكتر المسافرين يوحهون انصارهم صوب الحرطوم يطمع كل منهم في أن يشملها حميعًا سطرة واحدة. وتندى التارع الممتد على شاطيء النيل الأررق قامت عليه الاشحار الصحمة مكللة الهام لحصرة راهية، كما تندت من ورائه نعص مناني الحرطوم وطرقها كأنها صوامع نسالك نترت في الصحراء على مقربة من واحة دات حصب وىماء. وطلت الناحرة تستدير إراء حريرة توتي رهاء ساعة حتى إداء قاربنا التاطيء وحه المسافرون أنصارهم صوب عاصمة الدراويش ألا إن للدين يعحنون نالحرطوم لعدرا! فهده المدينة القديمة لايرين شاطيء نيلها الانيص ما يرين شاطيء نيل الحرطوم الأررق من التنحر نل يقع النطر عند مرسى الناحرة على رمال صحراوية انت مصطر كى تتحطاها إلى أن تعوص أقدامك فيها فادا حرتها نعد حبد ونلعت تراماً هو اترام الحرطوم صنو وتوأم صادفت عيك من المساكن والمناني ما يرور عنه نصرك لحقارته وقدارته لكنك تتعر كلما سار الترام وتعلعل في المدينة انك في مدينة سودانية حقاً، وترى نعد برهة أن المناني الواقعة عند المورد عنوان سيء لأم درمان، وأن فيها متل ما في الحرطوم من المنارل والمتاحر والمناطر وإن لم يكن فيها ما في مقر حكومة السودان من اصواء الكهرناء ومن مظاهر المدنية التي أقامها

الحاكمون في مقر حكمهم للترفيه عن أنفسهم ولتتيسر لهم الحياة في جو وفي بيئة وفي وسط لم يألفوها

نزلنا من الترام عند متجر مصري من أهل اسوان عرفناه في الخرطوم ولست أغلو ان أنا قلت ان هذا المتجر وبعض المتاجر الواقعة الى جانبه أجمل وأدعى للاحترام من أكثر متاجر الخرطوم. على أن ذلك ليس عجبا وصاحبه يتصل بالانكليز مباشرة وعنده في مصر تجارة كبرى وقد قابلنا بالترحاب وسألنا ان كنا نشرب «الجَبَنَة»، والجبنة قهوة أهل السودان وانتظرت لأرى أي نوع من القهوة يصنع هؤلاء الذين ما زالوا يعيشون عيش البداوة واستعرضت أثناء انتظاري صنوف القهوة السائحة والباردة مما يصنع في مصر وفي اوربا فنحن في مصر نطحن البن ونضعه في الماء الى أن يغلي ثم نشربه، أما في اوربا فيدقون البن حتى يتكسر ثم يصبون الماء الغالي في مصفاة وضع فيها البن كي يمر الماء به ويسيل خيره وما دام أهل اوربا أكثر منا حضارة فهذا التدرج في صنعة القهوة يبعث الى الذهن ان أهل السودان يسفون البن سفا وكنت افكر في شيء من هذا حين جاءت «الجبنة» فتدري ما هي؟ وعاء كروي من الفخار له فوهة ضيقة طويلة يوضع البن فيه بعد أن يدق حتى يتكسر ويغلى بعد ذلك في الماء ثم تغطى فوهة الجبنة بقطعة نظيفة من ليف النخل كي تحجب البن المدقوق كما تحجبه مصفاة الفضة أو المعدن حين

يصفي الماء وهذه هي قهوة أهل السودان ! أرأيت هي إذن كقهوة الاوربيين سواء بسواء لا فرق بينهما الا في الاناء التى تصنع فيه . وإذن فقد تتفق ارقى صور الحضارة مع أبسط صور البداوة ثم لا يكون بينهما فرق الا في الصورة والمظهر ويكون هذا المظهر وحده هو الذي يخول لأصحابه حق حكم الآخرين والتحدث عليهم .

وقمت وصاحبي أرود عاصمة الدراويش لأرى بلداً سودانياً بالفعل . ما أكثر الفرق بينها وبين الخرطوم ! إن بها لأزقة ضيقة تنفر الخرطوم وشوارعها الواسعة من ضيقها ، وان بها من الصناعات الوطنية الحقيرة ما لا يتفق ومظاهر النظام الانكليزي وكل ما استحدث فيها من أسواق كبيرة ومن بعض شوارع وطرق واسعة لم يغير سحنتها كمدينة سودانيــة انظر الى الزقاق الضيق المسقوف بألواح من الخشب والذى يعيد الى ذهنك منظر الخيمية والفحامين بالقاهرة هذا هو مقام صناع المراكيب السودانية وصنــاع المراكيب السودانية لا يستوردون الجلد مدبوغاً ولا يلجأون في دباغته الى أحدث الوسائل العلمية ، بل هم يكتفون اكثر الأمر بإلقاءه في الشمس حتى يجففه لظاها ومن الجلد الذي لم يجف بعد ما هو ملقي أمام دكاكين أهل هذه الصناعة الست تشعر الآن بريحه في انفك وبأثر ذلك في جوفك وأمعائك ؟! وانظر الى ذلك الشارع الـكبير عنوان المدينة . أليس يحيي ذكرى شارع النحاسين في أواخر القرن الماضي .

فهؤلاء العطارون قد برزت دكاكينهم في الشارع وجلس كل واحد منهم في هيبة ووقار كأنما هو قاضي الشريعة وهذا دكان جوهري ما تكاد ترى فيه جوهرة واحدة وان رأيت بعض آنية دقيقة وصاحبه فيه جالس وكأنه أحد يهود الصاغة ثم قف الآن قليلا فمتع ناظرك بصناعة وطنية تجذب السائحين من الأفرنج وغير الأفرنج اليها هذه صناعة العاج فهذا سن فيل قد جوف ورسمت فيه فيلة تصغر واحدا بعد الآخر كلما قربت من ناحية السن الدقيقة . وهذه زخارف طريفة من العاج مموهة بالذهب أو بالفضة لكن هذه الصناعة الوطنية الطريفة الثمينة ما تزال متأخرة عن مثلها في مصر تأخراً كثيراً وما تزال توضع في دكاكين لا سبيل لمقارنتها بمثل متاجر الخرطوم دعك الى جانب هذا من كثير من مظاهر البؤس والفاقة مما جئنا على وصف بعض منه عند أسواق الخرطوم وعند مخازن حبوب سكة الحديد

مع هذا كله فأم درمان مدينة لها حياة المدنية وفي هذه الأزقة والطرق والشوارع معابد تحدث عن أجيال وأجيال . ولهذه المباني القديمة الغير المنتظمة تاريخ ، عدم انتظامها أول شاهد عليه كلا ! ليست أم درمان غربة أو مزرعة لمالك خططها كما شاء له هواه ، ولكنها قدس لقبور كدست فوق قبور وهل في غير القبور حياة وحضارة ؟ بل إنك لترى نفسك وأنت أمام فضاء عظيم فيها لا يفصل بينه وبين الطريق الا جاجز محصص من بناء قد شعرت بشيء من

الحلال يملأ نفسك ومن الهيبة تفيض بها جوانحك ذلك حين تقف أمام جامع المهدي حيث يوجد أثر قبره . فهذا الجامع ليس كغيره من المساجد ليس كمسجد الخرطوم ومسجد أم درمان وأمثالها مما ترى في بلاد المسلمين طرا بل هو فضاء مسطح ما تكاد تحيط العين به في نظرة لعظيم سعته ، وليس بينه وبين الطريق الا اسوار بلغ من قلة ارتفاعها أنهـا لا تحجب أرض الفضاء الذي تحيط به عن عين الواقف على مقربة منها لـكنه جامع المهدي وبحسبك أن يذكر هذا الاسم حتى يمتلأ هذا الفضاء أمامك بالصور والمعاني وحتى ترى بعين بصيرتك جيلاً كاملاً من أهل هذه الاصقاع وقد حتشد في هذا المكان وخر ساعـة الصلاة ساجداً مؤمناً بأن إمامه وملكه رسول الله أوخليفة رسوله او هو الذي تجسد لهدى الناس وخلاصهم أجل ففي هذا الفضاء جمع المهدي أهل السودان جميعاً جيلا بل أجيالا وفي أم درمان كانت مئآت الالوف مما زاد على المليون وعلى المليونين أحياناً ،وكلهم يؤمن بالمهدي ويرى فيه روح القدس وما يزال هذا الفضاء فضاء كما كان ولئن دسته أقدام لا تؤمن قلوب أربابها بقداسة المهدي مثل ذلك الايمان القديم فالشمس التي طلعت على المهدي وعباده ما تزال تطلع فتبعث من أشعتها ما يحيي أمام الخيال كل هذا المنظر القوي الحي منظر المؤمنين أشد الايمان المتعصبين أشد التعصب يحيطون بمعبودهم يجلونه ويقدسونه وما يزال

السودانيون وغير السودانيين اذ يمرون بهذا المكان ويذكرون هذا التاريخ تمتلىء نفوسهم اكباراً وإجلالا فاذا ذكروا كيف اجلى المهدي جنود مصر عن السودان وكيف امتلأ رأسه بأحلام الغزو والفتح باسم الجهاد وكيف عاجلته المنون بعد ذلك، ثم كيف دنس قبره بعـد اعادة فتح السودان وكيف ذرى جثمانه ومثل بجمجمته، اذن لرأوا هذا الفضاء من الأرض مملوءاً بالأرواح ولتمثلوا فيه كل معاني ذلك العصر القريب منا والبعيد عنا والذي يخلع على أم درمان معنى اضاعت الخرطوم ما فيها من مثله بعد عمارتها على الصورة الحديثة التي نراها بها

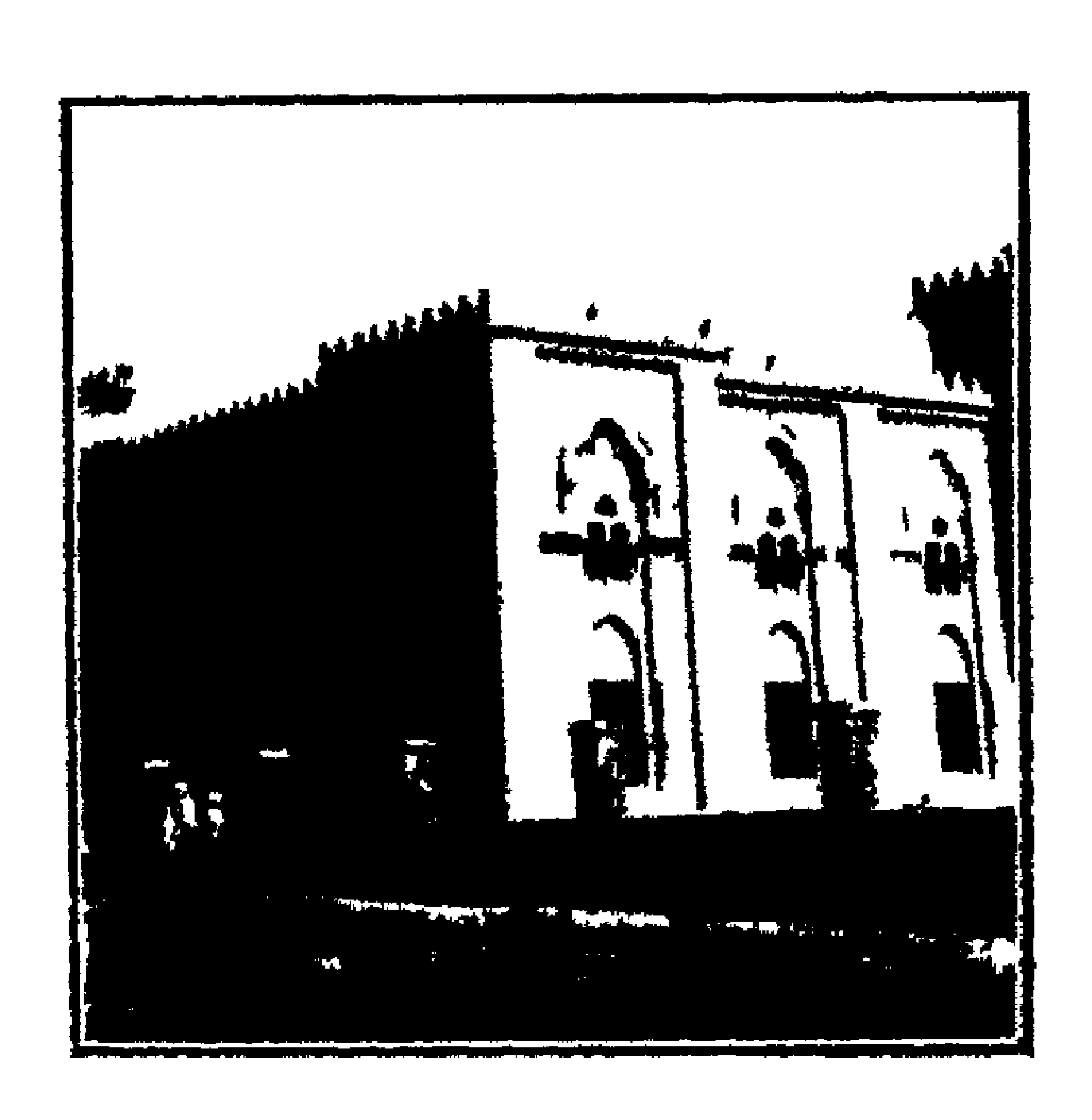
على ان رجلاً من الذين عمروا هذا الفضاء أيام كان يدوي باسم المهدي وكان له فيه يومئـذ شأن يذكر ما يزال حياً يرزق ذلك هو عثمان دقنه فقد كان هذا الرجل قائداً يبشر دعوة المهدي في شرق السودان بينما كان المهدي ما يزال في الابيض وما تزال دراويشه بعيدة عن الخرطوم وعن أم درمان فلما استتب له الأمر بعد ما اضطر المصريون بمشورة الانكليز الى التخلي عن السودان كان عثمان دقنه في طلائع قواته وقواده ولما اعيد فتح السودان بقيادة السردار كتشنر بعد ثلاثة عشر عاماً من وفاة المهدي قبض على عثمان دقنـه أن كان أمره قد استفحل وشوكته قد قويت وظل هذا الرجل في السجن وما يزال فيه وكانت حكومة السودان

قد أدت له في اداء فريضة الحج مند عامين فسافر مع شاب من أقربائه يريد بيت الله الحرام راجياً أن يقضي بمكة ما بقي من أيامه . فلما نشبت الحرب بين سلطان نجد وملك الحجاز عاد ادراجه الى السودان وردته الحكومة فيه الى معتقله وهو قد بلغ اليوم من الكبر عتياً وانك لتشفق على رجل مثله تحدرت به الشيخوخة الى أحلام الطفولة من جديد حين تسمع ما كان من قصته مع السردار ستاك باشا حين زاره عام ١٩٢٤ ، فلما سأله عن شأنه وما يمكن أن يشكو منه وما يمكن أن يشتهي كان جواب العجوز المتهدم الذي اهتز السودان من أعماله وأعمال رجاله سنين تباعاً لست أشكو إلا من شيء واحد ذلك انهم كانوا يجيئونني من بلح التمر كل يوم بأربعين ومائة بلحة أما الآن فلم يعودوا يجيئونني إلا بتسعين هذا كان كل همه وتلك كانت شكواه وفي عد التمر الذي يؤتى له به كل يوم كان يقضي وقته وسأل السردار في هذا الأمر الخطير فعلم انهم كانوا يجيئون له بتمر صغير ثم رأوا هذا التمر الكبير خيراً له قال السردار أعيدوا اليه بلحاته الصغار كما كانت اربعين ومائة ولا تكلفوا عقله وأعصابه كل هذا الاجهاد الذي تشكو اليوم نسبه

هذه البقية من عثمان دقنه ، هذا الطَّلل الذي يندب التمرات التسعين بعد ما كان صاحبه في الشباب لا يعرف غير البطش والثورة

هو الآن خافت كذلك الفضاء الصامت اليوم بعد أن كان اسم الله واسم المهدي يدويان فيه كل يوم دوي الرعد وبعد أن كان له ما للرعد من بذر السماء

فاذا أنت حاورت هذا الفضاء الممتلىء بصور الماضي وسرت في طريقك متجهاً الى وسط أم درمان رأيت عن يمينك مسجد ام درمان الذي شيد كما شيد مسجد الخرطوم على طراز حديث ولما يشهد من عمر التاريخ ما يحدث به وهو ابن عصرك ومن عمارة أقرانك



مسجد ام درمان

***

وأم درمان بلدة سودانية صحيح انك ترى فيها بعض ما ترى

في الخرطوم من متاجر للسوريين وللمصريين ولجماعة من الاوربيين.
لكن هذه المتاجر ليست قوام حياة أم درمان ، بينما هي قوام حياة
الخرطوم ثم أنت ترى أبداً الى جانبها مظاهر نشاط السودانيين
أنفسهم بل أنت ترى على هذه المتاجر مسحة من معنى السودان
لا تراها على متاجر عاصمة السودان . فاذا أوغلت قليلاً في قلب
البلد رأيت الحيـاة السودانية بكل معانيها ورأيت شيئاً عجباً .
فالسودانيون في هذه الحياة السودانية ليسوا كأمثالهم في جو الخرطوم.
ففقراء الخرطوم من السودانيين تبدو عليهم وحشة الفـاقة وألمها
وبؤسها . أما فقراء ام درمان فلا يأبون ابتسامة للحياة تسفر عن
اسنانهم البيضاء الناصعة ولعل السر في ذلك ان هؤلاء يلتئمون مع
جو بلادهم فليس بينهم وبين ما حولهم من الناس والكائنات مثل
ما بين اولئك وما ينعم به الحكام من أسباب الرغد والرفاهيـة .
أو لعله الشعور بالحرية أن ليس بينهم وبين الحكام من الروابط
القريبة ما يجعلهم دائمي الاحساس بمراقبتهم اياهم مراقبة ضيقة على
كل حال فان السودانيين والسودانيات هنا أكثر مرحاً وأشد
بالحياة اغتباطاً مررنا بسودانيات تبيع (الرهط) فوقف صاحبي
يساومهن والرهط لباس الفتيات يأتزرن به ما دمن أبكاراً .
وهو حزام من جلد يبلغ عرضه قيراطين أو ثلاثة قراريط ، تتدلى
منه خيوط رفيعة من الجلد ايضاً ، وهي كثيرة كثيفة ، فإذا شدت

الفتاة حزام الرهط على خصرها سترتها هذه الخيوط حتى ركبتها .
وليس يحضرني للرهط شبه فيما تقع عليه عين أهل الحضارة إلا لباس
بعض الراقصات في الأوبرا وغيرها من المسارح الكبرى غير
أن بينه وبين لباس الراقصة ما بين (الجَبَنَة) وإناء القهوة
الفرنسية من فرق . فإذا تزوجت البكر السودانية خلعت الرهط
واتزرت بالقماش مكانه .

وقف صاحبي يساوم بائعات الرهط ويسائلهن ما بال هذا الرهط
أحمر مصبوغ وذلك الآخر على لونه الطبيعي ؟ فابتسمت الفقيرة
السودانية ابتسامة قانعة وجاهدت لتفهمنا واجتهدنا لنفهم أن هذا
المصبوغ أحط في صنف جلده من الآخر وهو لذلك أقل منه ثمناً .
ولتزيدنا اقتناعاً تناولت من تحت مقعدها جلدين أحدهما أرق من
الآخر حالاً وهو الذي يصنع لتواري الصناعة سوآته ثم أمسكت
بيمناها نصلاً لسكين قديم ولفت بعض الجلد على ابهام قدمها وشدته
اليها بيسرى يديها وأرادت أن ترينا كيف تصنع خيوط الرهط
المتدلية من حزامه كل ذلك من غير أن تفارق فاها ابتسامته
الناطقة بالطمأنينة لشظف العيش بل لبؤس الحياة .

قال صاحب من السوريين المقيمين في أم درمان كان معنا
ليت الحظ يتيح لكم أن تشهدوا حفل زواج هنا كنتم فيه ترون
صورة طريفة من صور الحياة السودانية وكنتم تدهشون مما فيه من

شبه بالحفلات الاوربية مع اسراف في التقدم والتبرير على الاوربيين.
في هذا الحفل يجتمع بنات الطبقة التي منها العروس فيرقص ويغنين.
ثم يتقدم الخطيب الى عروسه يراقصها وهي إذ ذاك عارية لا يسترها
إلا هذا الرهط الذي ترون فاذا تم دور الرقص أمسك بيده سبعاً
من خيوط الرهط يجذبها جذبة واحدة فان اقتلعها فهذا الرجل الذي
تفخر به عروسه أما ان عجز عن اقتلاعها فله ولها العار والخجل
وكثيراً ما يترتب على العجز من جانبه فسخ الزواج
قال صاحبي الذي جاء واياي من الخرطوم
— وما برع خيوط الرهط الى جانب تراوح شبان حمر الهنود ؟
فلست أذكر أين قرأت عنهم ان الشبان الذين يريدون الزواج
يحضرون الى حلقة تقف حولها بنات القبيلة ثم يتقدم كل شاب الى
من ينزع ما حول أحد ضلوعه من اللحم وتمر حول الضلع حلقة من
حديد يشد اليها حبل متين يربط بعد ذلك الى شجرة او نحوها
وبعد ذلك يتراجع الفتى للوراء بكل قوته حتى يكسر ضلعه وتخرج
من صدره حلقة الحديد وأي الشبان كان أكثر احتمالا للألم حتى
تمام هذه العملية القاسية فله أن يختار من بنات القبيلة من شاء أما
هنا فما أحسب جذب خيوط الرهط السبع وانتزاعها إلا ايذاناً بأن
أيام الرهط انتهت وآن للفتاة أن تكون امرأة
ثم تابع السوري المقيم بأم درمان حديثه

— لعلك لم تعد الحق في شيء فقد سمعت ان الفتيات كثيراً ما يجررن الخيوط السبع قبل رقصة العرس حتى لا تستعصي على الخطيب فلا يكون انتزاعه إياها إلا وسيلة اعلان انخراط عرسه في سلك النساء وخروجها من سلك البنات .

***

وتركنا السوق وصانعات الرهط و بائعاته وعدنا أدراجنا لتناول طعام الغداء عند تاجر سوري ظريف دعانا الى بيتـه وبيت هذا التاجر مثل لغيره من بيوت السودان صنع من اللبن أو من « الجالوس » وجعلت نوافذه على الجهتين البحرية والقبليـة لتغيير الهواء الصحي في السودان إذ يكون شمالياً حيناً وجنوبياً أحياناً أخرى و به فناء عريض صاحبه فيه بعض الاشجار والزهور لتكون للعين بهجة وحين القيظ ظلاً يتقي لاسان به لافح الهجير وكان الى جانب هذه « الجنينة » الظريفة فناء آخر متسع خصص لتربية الديكة الرومية وجد به حوالي خمسين والستين منها حين درنا نرى البيت ومشتملاته

ويعيش هذا التاجر في سعة من النعمة و ينهل من صنوف المتع المختلفة بما يرفه عنه الوحدة ويهون عليه العيش في بلاد نائية يبتغي الثروة كي يعود منها الى أهله ومسقط رأسه فيكون فيه موضع الاعزاز

والأكرام فعنده « فونوغراف » لطيف جمع له من مختلف « الاسطوانات » أشكالا وألوانا ، وفي ركابه بحار سوري يقيم بأم درمان هو الآخر ويتقن اللعب على الكمنجة اتقانا حسنا وكان معنا بين الذين دعوا الى الغداء سوري آخر جميل الصوت وانتظمت الحلقة وبلغت من البهجة أن نسي الانسان أين هو وان خيل اليه أنا في إحدى بلاد سويسرا نتمتع من بديع جمال الطبيعة بخيرما يستمتع به الحس الطبيء الى معاني الجمال فلما بدأت موليات النهار تولي ذكرنا انا مدعوون الى طعام العشاء عند أحد معارفنا بالخرطوم فشكرنا صاحب الدعوة وسرنا حتى محطة الترام الذي أقلنا الى الباخرة فإلى المقرن فالى دار صاحبنا

وترك هذا اليوم الذي قضيته بأم درمان في نفسي أحسن الأثر . فقد رأيت مدينة سودانية حقاً ورأيت حياة سودانية يشعر أصحابها أنهم في بلدهم وان الغريب عنهم نازل عندهم وأنه في حمايتهم وهم ليسوا في حمايته شأن السودانيين المقيمين بالخرطوم وهذه الحياة السودانية في أم درمان هي التي قضت على ما كان من محاولات القضاء عليها كمدينة ولجعل الخرطوم كل شيء بل ان من الناس من يعتقد ان الجسر الذي ينشأ الآن بين الخرطوم وأم درمان سيزيد عمارة هذه المدينة وسيعيد اليها كثيراً من سلطانها أيام كانت عاصمة الدراويش وما أظن واحداً من السودانيين الا يغتبط

لهدا ويسر به بل احسب ان الدين شعروا حين مقامهم في السودان
بانعطاف قلوبهم نحوه ليشعرون هـدا الشعور وليحفظون من أم
درمان لا من الخرطوم ذكر السودان الصحيح .

مفكرة افتتاح خزان سنار

الاربعاء ٢ يناير سنة ١٩٢٦ الساعة الثامنة والدقيقة اربعين مساء القيام بالقطار المخصوص من الخرطوم الى مكوار لافتتاح خزان سنار رسمياً

الخميس ٢١ يناير سنة ١٩٢٦ منتصف الساعة التاسعة صباحاً . الوصول الى مكوار والى خزان سنار

الساعة الحادية عشرة صباحاً حفلة الافتتاح

الساعة الرابعة بعد الظهر مشاهدة وابورات الخليج بركات

الجمعة ٢٢ يناير سنة ١٩٢٦ الساعة السابعة صباحاً الوصول الى الخرطوم عائدين بعد الحفلة

هذه هي مواعيد السفر للحفلة الرسمية التي سافرنا جميعاً من مصر وسافر بعضنا من لندره الى الخرطوم لحضورها ولقد وزعت علينا بعد وصولنا الى الخرطوم كراسة فيها هذه المواعيد وغيرها مما تقتضيه تفاصيل الحفلة كما احتوت على سائر مواعيد حركاتنا بالخرطوم

واذ كنا ضيوف معالي حاكم السودان العام فقد عنيت حكومة السودان اثناء الرحلة كلها براحتنا لكنها كانت أشد عناية اثناء السفر من الخرطوم الى سنار والعود من سنار الى الخرطوم .

فأرسلت إلينا في منتصف الساعة الثامنة من مساء الاربعاء ٢ يناير عربات كبيرة تنقل أمتعتنا كما أرسلت اوتوميلات في الساعة الثامنة والربع كي تنقلنا الى المحطة وما كدنا نصلها في هذه الساعة التي أرخى فيها الليل سدوله على الوجود حتى ألفينا جمعاً كبيراً من الرجال والنساء لا يتيسر تمييزه في هذا الوقت فلما آذن للقطار أن يتحرك في الساعة الثامنة والدقيقة الاربعين ارتفعت أصوات هذا الجمع الحافل بزغاريد النساء وشيء يشبه الهتاف من الرجال واستمرت هذه الزغاريد زمناً طويلاً كان القطار يسير في اثنائها الهوينا مستديراً الى الشرق كي يحاذي النيل الأزرق ويتبع شاطئه حتى يصل الى سنار

هذه الجموع الحافلة وهاتيك النساء المزغردة لا تعرف جمهرتها الكبرى شيئاً من أمر خزان سنار وربما اعتقد كثيرون ممن عرفوا عنه شيئاً انه شر لهم لأنه يحجز الماء فيما وراء ذلك البلد النائي حجزاً يحول دون فيضان النيل الأزرق على حياض أراضيهم كما كان يفيض من قبل فيدع لهم الفرصة التي يزرعون فيها الذرة لكن هؤلاء الرجال حشدوا لأن حكومة السودان أرادت أن يحشدوا وهاتيك النساء زغردن لأن حكومة السودان أرادت أن يزغردن وهم جميعاً واجبة عليهم طاعة أولي الأمر ولهم في أهل مصر اسوة حسنة إذ

يحشدون لغاية ولغير غاية في مواطن كثيرة حسب ما تملي به أهواء الحكام وشهوات السياسة .

وانطلق القطار يسري في دجى الليل ويخترق الظلمات وينهب الأرض ،وبتنا جماعة الصحفيين في شغل بتلاوة الخطب التي وزعت علينا والتي أعدت ليلقيها لورد جورج لويد مندوب انكلترا السامي وسر جوفري أرشر حاكم السودان العام واسماعيل سري باشا وزير الاشغال بمصر في حفلة العيد . واضطررت أنا لنقل خطاب حاكم السودان الى العربية اثناء سفر القطار لأنه لم يكن قد ترجم فلما أتممته جعل مكاتب التيمس يسألني رأيي فيما حوته هذه الخطب وهو معجب بها ولها محبذ

وقمت الى مرقدي قبيل منتصف الليل فلما أيقظنا الخادم لتناول شاي الصباح كان النور قد انتشر في الأرجاء وتبدت من الجانبين سهول عامرة ظلت تحاذينا حتى وصلنا محطة سنار قبل الساعة السابعة . ثم تحرك القطار منها بطيئاً الى مكوار على مقربة من الخزان والى جانب المكان الذي تقام فيه الحفلة الرسمية .

ماذا أرى؟!! ما هذه الألوف المؤلفة من خلق الله أهل السودان؟ وما هذه الطبول والزمور وما هذه الزغاريد تنشق عنان الجو وما هذا العيد الذي لبس فيه اولئك السود الأبيض الجديد ؟ و ما هذه الأعلام المصرية والبريطانية يلعب بها نسيم الصبح العليل ؟ ما أطن

أ كبر مدن أية دولة من دول الخلفـــاء كانت مائجة بالناس يوم وضعت الحرب الـكبرى أوزارها موج هذه البقعة المحيطة بترعة الجزيرة وخزانها ؟.. أالحق ان اولئك كلهم جاؤا باعث من نشوة الجذل والطرب يسعدون برؤية الماء ينزل في ترعة الجزيرة ؟ أم انهم حشروا اليه كما حشر المزعردات والهاتفون في الخرطوم ؟ وكما يحشر الناس في مصر زمراً للقيا كبير أو لتحية أمير

قلت لأحد كبار الحكام في حكومة السودان انكم لأشد من حكومة مصر مهارة في حشـــد الناس وحشرهم وابرع تمثيلاً لما تريدون أن يكون احساسهم وشعورهم

قال وعلى ثغره ابتســـامة جمعت الى التهكم الانتصار لكننا لا نحشرهم الا لمناسبة عظيمة كهذه المناسبة أما في مصر فمـــا أكثر ما يحشرون .

وقف القطار إذن عند مكان الحفلة فكان هذا المكان الى يساره. وكان خزان ترعة الجزيرة أمامه ، وقد امتدت عليه وعلى الخزان كله قضب السكة الحديد التي ينتظر أن تمتد بعد ذلك الى كسلا وكان مقرراً أن يقوم القطار بنا فيتخطى الخزان كله وعرضه ثلاثة كيلو مترات. لـكنه كان يقوم بعـــد انتهاء الحفلة لذلك فضلت أن أسير ولو الى منتصف الخزان راجـلاً كي أحيط بشيء من أمره خبراً وأول ما توسطت خزان ترعة الجزيرة رأيت هـــذه الجموع التي ترى في

الصورة على شاطئ الترعة الأيمن والأيسر وقد اعتلى عدد كبير منها تلك الأكمة الظاهرة . فما كنت ترى الا ملابس بيضاء ووجوهاً



(صورة الجمع مأخوذة من فوق خزان ترعة الجزيره)

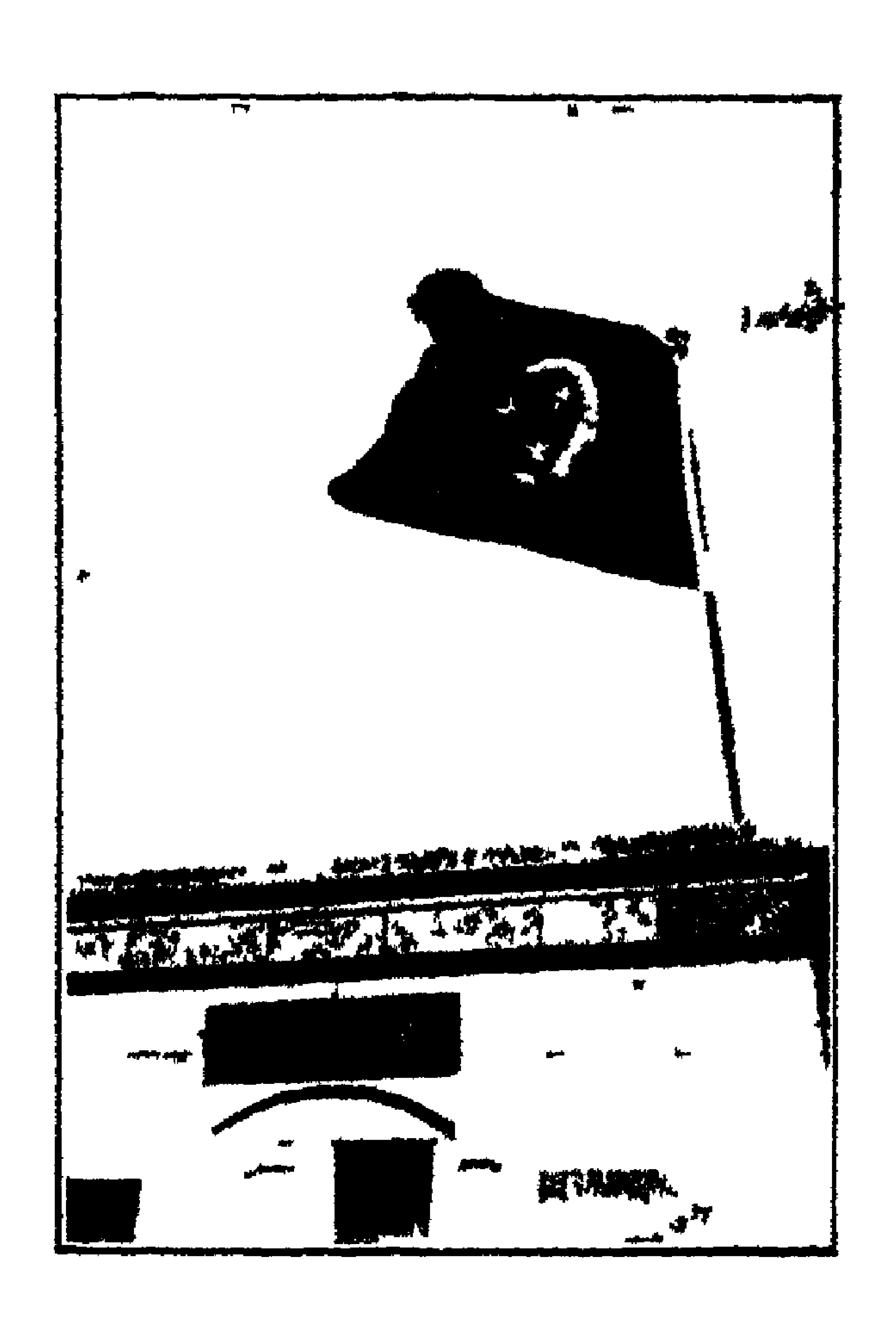
سودانية واقفة تحت الشمس في صمت وسكون كأنما انشقت أرض الأكمة عنها بعد ان كانت حبلى بها فعتقت خلقاً جديداً

وتخطيت ترعة الجزيرة فوق جسر الخزان وأمعنت في سيري على الجسر في امتداده عند الشاطيء الثاني للنيل الازرق ويبلغ عرض خزان ترعة الجزيرة مائة متر وثمانية أمتار ،يسير الجسر بعدها فوق أرض صلبة مدى أربعمائة وتسعة وثلاثين متراً ثم يمتد بعد ذلك فوق خزان احتياطي عرضه مائة وخمسون متراً . يجيء بعدها خزان النيل الازرق نفسه وعرضه ستمائة متر وستة أمتار ، يلتصق به خزان احتياطي ثان كالخزان الاول في عرضه،ويسير الجسر بعد ذلك فوق الأرض الصلبة مائة وسبعة وثلاثين متراً أخرى وبذلك تصبح هذه الابعاد جميعاً ثلاثة كيلو مترات وخمسة وعشرون متراً

الى يمينك حين تخطيك الجسر من فوق ترعة الجزيرة الى تجاه شاطيء النيل الأزرق الشرقي ترى خزان سنار حجز الماء فيه ذلك الجسر الذي تسير عليه فجعل منه بحيرة واسعة ما يكاد يحيط بكل جوانبها نظر الرائي وكان الماء يومئذ أزرق زرقة العقيق وزرقة السماء وكان الجو صحواً صافياً فلما ابتعدت عن صحبة ألوف من حشروا الى شاطيء الترعة و بلغت من الجسر فوق مجرى النيل الازرق وهبت على نسمات الصباح الرقيق أرسلت ناظري استطلع شيئاً من خبر هذه البحيرة المتسعة الى يميني فلما عجزت عن الاستطلاع رددت الطرف يسرة فاذا ترعة الجزيرة تنتظر افتتاح الخزان ليرتفع الماء فيها،واذا النيل الازرق فيما وراء الخزان محصور في ستمائة متر بينما تتهادى مياه الخزان

في ثلاثة آلاف وخمسة وعشرين متراً واذا الفرق بين ارتفاع مياه الخزان وانخفاض مياه النيل الازرق يأخذ بالنظر فعلاً ويدعو الى شيء غير قليل من التفكير في هذا العمل الهندسي العظيم وآثاره في السودان وما قد يكون له من رد فعل على المياه اللازمة لمصر

في منتصف الخزان غرفة عليها لوحتان من نحاس نقش على واحدتهما



تاريخ بناء الخزان وعلى الأخرى أسماء حكام السودان اثناء بنائه والمهندسين الذين تعاقبوا هذا البناء وفوق هذه الغرفة رفع العلم المصري

مقابل الغرفة صفت مقاعد كثيرة يستريح عندها المندوب السامي الذي جاء مع صحب له يشهد الجران ويسأل « المهندس المقيم » عما يريد أن يسأل عنه من المعلومات الخاصة بهذا البناء العظيم . وقد لقيني



(مكان الاحتفال)

المندوب والحاكم العام وأصحابهما حين عودتي راجعاً الى مكان الاحتفال وكان حتماً أن أسرع بالعودة وانا راجل وهم مستقلون السيارات وعدت فقابلت كثيرين من المصورين والصحفيين مسرعين بالعودة كذلك فلما بلغت الى حيث كان القطار واقفاً انحدرت يمنة

حيت أقيمت مطلة للمدعوين ترفرف من حولهـا الأعلام المصرية ، وفي ظلالها قامت صفوف مدرجة من المقاعد الخشبية الطويلة ليجلس المدعوون عليها

أمام هـذه المظلة وضعت منصة للخطابة ووضع فوق المنصة بوق لتصحيح الصوت حتى تسمعه هـذه الألوف المؤلفة جميعا كما قامت فوق المنصـدة يد في شكل « آمحوتب » متصـله كهربائياً بفتحات الخزان حتى اذا أدارها المندوب السامي انفرج باب الخزان وجرى الماء منه في ترعة الجزيرة .

وفي الساعة العاشرة عاد المندوب السامي والحاكم العام وقرينتيهما وجلسوا الى المنصـة وجلس معهم معالي اسماعيل سري باشا وزير الاشغال بالوزارة المصرية في ذلك الحين وجلس من ورائهم الشيخ محمد الطيب هاشم قاضي النيل الازرق الذي كلف بالقاء ترجمة الخطب من الانكليزية الى العربية

ثم قام السير جوفري آرشر حاكم السودان العام وألقى خطبـة هذه ترجمتها

« يا فخامة اللورد اني بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن ضباط وموظفي حكومة السودان وهـذا الجمع المحتشد وفي الواقع بالنيابة عن سكان هذه البلاد ، نرحب بفخامتكم ترحيباً قلبياً كلنا نعلم حق العلم ما بذلتم فخامتكم أثناء تقلدكم منصب حاكم عمومي من العناية الفائقـة

والهمة العظيمة في أمور الري وغيرها من المشروعات الآيلة لاسعاد الشعب وترقيته المادية . ولم يمض بعد سنتان على وضعكم الحجر الأساسي لذلك العمل العظيم على نهر السد الذي أطلق عليه اسم فخامتكم فدعي قناطر لويد انا نقدر عظم ملاءمة هذه الفرصة بمناسبة زيارتكم الأولى للسودان كمندوب سام للاحتفال باقامة خزان سنار ، ذلك العمل العظيم الشأن لخير هذه البلاد هذا وانا يا فخامة اللورد لنتفاءل خيراً بحسن المستقبل لوجودكم بيننا في هذا اليوم ولا ريب عندي ان السودان في أيامكم وبفضل عنايتكم يبلغ شأواً بعيداً في سبيل التقدم والفلاح وكذلك أود يا فخامة اللورد أن أعرب لكم اليوم عن أمل عظيم هو أنكم كممثل جلالة الملك في مصر تتمكنون بالاتفاق التام مع مصر من ترويج وتوسيع نطاق الاعمال التي من شأنها حفظ وصيانة مياه النيل لدرجة يستطاع معها بدون أن تتعارض مصالح القطرين زيادة الثمرات ، ليس في مصر فقط ، بل في السودان أيضاً

وان العمل العظيم الذي نشاهده كاملاً أمس في هذه اللحظة ما بلغ هذه النهاية الا بفضل جهاد أناس كثيرين فقد ظل مشروع ري سهول الجزيرة موضوع بحث المستشارين البريطانيين الذين تعاقبوا في وزارة الأشغال المصرية من عهد السير وليم جارستين . والابحاث الأولية التي بدأها المستر ديبوي أكملها السير مردوخ

مكدونلد بمعاونة المرحوم اللورد كتشنر والسير ريجالدونجت والمرحوم
السير لي ستاك واني لا أشك في أن جميع الحاضرين يأسفون أشد
الأسف لعدم تمكن السير مردوخ مكدونلد والسير ريجالد ونجت
ونجت من الحضور معا في هذا الاحتفال وقد وصلتني اليوم الرسالة
الآتية من السير من السير ريجالد ونجت (عسى أن يكون افتتاح
الخزان ومشروع الجزيرة ونجاح عصر فلاح جديد للسودان وشعبه)
ولا بد لي في هذا المقام من القول بأننا نحن الذين ترتبطنا بالسودان
روابط خاصة نقدر اعظم تقدير اهتمام السير ريجالد ونجت لخير
شعوب هذه البلاد الذين حكمهم مدة سبع عشرة سنة بالحكمة
واللطف وقد تكرمت وزارة الاشغال المصرية فوضعت بعناية السخاء
تحت تصرف حكومة السودان كل ما كان لديها من الموارد للقيام
بتخطيط وانفاذ هذا المشروع العظيم

واني لأنتهز فرصة وجود صاحبي المعالي السير اسماعيل باشا
سري وعبد الحميد باشا سليمان هنا اليوم لأعبر لهما بالنيابة عن
السودان عما نحن مدينون به لجميع الوزراء الذين تعاقبوا في وزارة
الأشغال العمومية وللمهندسين القديرين الذين جاءوا من مصر وكان
لمجهوداتهم فضل في المعاونة على اتمام هذا المشروع وسوف لا أجهد
حماستكم في مثل هذا الظرف السعيد بسرد الصعوبات التي صادفت
العمل في بدئه وما زادت الحرب ونتائجها في تلك الصعوبات وكذلك

لا أطمع في أن أضمن هـذا الخطاب القصير ما يجب من الاعتراف بفضل كل أولئك الذين عملوا لاتمام هذا المشروع الذي نحتفل اليوم به هذا واني أتقدم بالشكر للسير ادجارد بارد والسير ادجار بونهام كارتر والسير جيمس كري لمـا قاموا به وهم في حكومة السودان من ابتكار هذا المشروع وتنفيذه .

وبعد ان أثنى الحاكم العام على خدمات كل الذين اشتركوا في هذا العمل العظيم ختم خطابه بالكلمات الآتية

«ولي الشرف أن أدعو فخامتكم الى تكريس هذا العمل الهندسي العظيم لخير السودان وشعوبه »

وقام من بعده لورد لويد فألقى خطبة هذه ترجمتها

يا صاحب المعالي ويا حضرات ضباط وموظفي حكومة السودان وعلماء ومشايخ وأعيان وأهالي السودان حقًا اني لكبير الحظ أن تكون أول زيارة لي لهذه البلاد كمفوض سام كانت لأ حل الاحتفال بانجاز هذا العمل العظيم الذي تم لي الشرف بافتتاحه هذا اليوم وقد قابلت اكثركم لأول مرة في الاستقبال الذي أقيم في الخرطوم احتفالا بيوم الملك وأثر بي ما رأيته من روح المودة الخالصة التي تسود ذلك الاجتماع الممثل لمصالح متعـددة وهامة واني أرحب بهذا الاحتفال الذي نقيمه الآن حيث قد ختمت تلك المودة بعمل عظيم ، الغرض منه جلب المنافع الدائمة لكم يا أهالي السودان وللبلدان الاخرى التي

تستورد المواد لصناعتها من محصولات أراضيكم وان السواد الاعظم منكم اليوم ليستطيع اكثر مني تقدير تلك الحكمة والبصيرة والجراءة التي جعلت خزان سنار في حيز الاستطاعة ان السودان اليوم يجني ثمار عبقرية اللورد كرومر المقرونة بطول الاناءة فقد كانت سياسته كما تذكرون ترمي الى ترقية البلاد ترقية ثابتة دون أن تتجاوز حدود طاقتها وقد اقتفى السير ريجنالد ونجت والمرحوم السير لي ستاك هذه الخطة وواصلا العمل باخلاص ونجاح باهرين الاول لمدة سبع عشر سنة والثاني لمدة السبع عشرة سنة الأخيرة من حياته ويجب أن لا ننسى اليوم ما نحن مدينون به لهؤلاء الثلاثة وعلي أيضاً أن أؤيد السير جيوفري أرشر فيما فاه به من ثنائه على البراعة والمثابرة والهمة التي أبداها أولئك المهندسون الشهيرون الذين منذ ان وضع السير وليم جارستن المشروع الأصلي سعوا الواحد تلو الآخر لاجل تحقيقه. وللسودان في شخص السير جيوفري أرشر حاكم عام أتق كل الثقة انه سيحافظ علي تقاليد الماضي وقد جاء للسودان في وقت مناسب وفي دور حيوي في تاريخ البلاد فان خزان سنار كما تعلمون ليس سوى جزء من مشروع عام لأجل ترقية وتحسين موارد النيل. وقد أثبتت المباحث الدقيقة التي أجراها الخبراء في الماضي ان مياه النيل اذا أحسن صيانتها وتوزيعها بالعدل والانصاف يجب أن تكفي وتزيد عن احتياجات مصر والسودان الحالية والمنتظرة في المستقبل

ومن دواعي سرورنا الخاص أن يكون حضرة صاحب المعالي السير اسماعيل باشا سري ، احد ابناء مصر والمعروف بالنبوغ والشهرة، حاضراً معنا اليوم ، وذلك نظراً لاشتراكه شخصياً في اعداد هذا المشروع ، وكذلك نتفاءل خيراً وجود صاحب المعالي عبد الحميد باشا سليمان ، فاني واثق أن مقدرته وسعة نظره يبعثان على ازالة ما بقي عالقاً من سوء الادراك للمسائل العملية الخاصة بالمشروع

أما والوقائع الجوهرية هي كما تعلمون فاذا ساد المفاوضات روح الحكمة السياسية فلا يجب أن تقوم صعوبة في سبيل الوصول الى تسوية تضمن ضماناً وافيا حاجة مصر، وفي نفس الوقت تمكن السودان من السير في طريق العمران بتقدم ثابت حسبما تسمح له موارده وللسودان في احوال كهذه أن ينظر الى المستقبل بعين الثقة والطمأنينة وعسى أن يبقى العمل الذي افتتحه اليوم شاهداً دائماً على الفوائد الناجمة عن قيام الحكومة بعمل كبير بغاية الحكمة والتبصر. ويجب أن يكون من نتائج هذا المشروع ليس فقط زيادة رفاهية المزارعين الوطنيين بل يجب في نفس الوقت أن يعود بفائدة عادلة مقابلة لرأس المال الكبير الذي انفق على انشائه وختاماً أقول انه لزعم من أن زراعة القطن هي الغرض الاول من مشروع الجزيرة فهناك شرط على جانب عظيم من الحكمة يضمن وفرة المواد الغذائية محلياً

وعدم تعرضها للنقص وأود في الختام أن اشير الى موضوع آخر عام وعلى جانب من الاهمية وهو أن الروابط التي تربط الحكومة وأهالي السودان لهي روابط صداقة شخصية ومن المبادىء الاولية في مشروع الجزيرة كما في غيره من المشاريع التي يمكن أن تقام في هـذه البلاد أن تلك الرابطة المرغوبة يجب أن يحتفظ بها بغاية الاعتناء والحكومة تعتقد أن من الامور الجوهرية ترقية الشعب على موجب طبيعته وأن التحسين المتعاظم في الأمور المادية لا يجب أن ينتج ضياعاً أو انحطاطا في الافكار والتقاليد التي هي اساس اخلاق الشعوب ولي ملء الثقة أن يقوم قادة الافكار في السودان سواء كانوا رؤساء دينيين أو زعماء قبائل أو ذوي معارف ممتازة بالواجب عليهم للمحافظة على الحالة السعيدة الحاضرة ويسرني أن اخاطبكم بلهجة المتفائل بحسن المستقبل أن الزمن بالغيب محفوف دائما بالمخاطر انما يمكنكم أن تتأكدوا من شيء واحد هو اني سأبذل اقصى الجهد وروح التساهل الودي لازالة كل العوائق التي قد تقف في طريق المشروعات العظيمة لارتقاء وعمران السودان في المستقبل وأن ما اختبرته في هذه المدة الوجيزة اثناء زيارتي الأولى للسودان يبعث في نفسي الاعتقاد بأن في استطاعتي الاعتماد على ولاء ومساعدة كل شخص في السودان سعيا وراء تلك الغاية العظمى التي لابد أن تثير اهتمام وعطف العالم المتمدن بأسره .

ثم وقف حضرة صاحب المعالي اسماعيل سري باشا والقى خطبة هذا نصها

يا فخامة المندوب السامي ويا صاحب المعالي الحاكم العام ويا سيداتي ويا سادتي

كان من بواعث سروري العظيم أن ادعى لحضور هذا الاحتفال الزاهر بافتتاح خزان سنار المعد لاحياء موات جزء عظيم من الاراضي السودانية بالري الصناعي الذي ما دخل أرضاً الا وراد في انتاجها كما هو معلوم ومن بواعث الفخر لمصر أن تكون هي واضعة مشروع ري الجزيرة بواسطة كبار مهندسيها وفي مقدمتهم المرحومين السير ويليام جارستن والسير آرثر وب ومن تبعهما كالمستر ديبوي والمستر توتنهام والسير مردوخ مكدونلد الذي تم على يديه تحضير المشروع نهائياً واعداده للتنفيذ ولا حاجة لأن اذكر أن كل هؤلاء من اعظم المهندسين التابعين لوزارة الاشغال العمومية هذا واني أبدي هنا مزيد الشكر للسير جوفري ارشر على ماقاله به في هذا الخصوص وقد أشرف مهندسون تابعون لوزارة الاشغال العمومية المصرية على العمل في مدة تنفيذه

ويمكنني أن أزيد مع الفخر اشتراك شخصي الضعيف في تحضير المشروع هذا واني أذكرها مع مزيد السرور لاهالي السودان الحاضرين معنا عطف الامة المصرية عليهم بهذه المناسبة السعيدة

وأخبرهم بأنها يسرها أن ترى السودان في بحبوحة من الرغد والسعة وأن يزداد اهله رفاهية وتقدما في العرفان ولا ريب عندي أن ما يجري من الماء في النيل السعيد يكفي بل يزيد عن احتياجات مصر والسودان كليهما معاً اذا أحكم تدبيره بالاعمال الصناعية التي أولها هذا الخزان واني اسأل المولى القدير المتعال أن يوفقنا جميعاً للوصول لاداء واجباتنا

* * *

ولقد كانت خطبة سري باشا غير المنتظرة باعثة لسرور المصريين الذين استاءوا قبل ذلك لعدم تمثيل مصر في هذه الحفلة التاريخية وتبدو في الخطب كلها روح تفاهم ممكن تحقيقه اذا اخلصت جميع الضمائر لهذه الغاية وصدق العمل القول ولعل اشارة سري باشا الى مجهود مصر العظيم في انشاء خزان سنار يجعل هذا الاخلاص صريحاً

وبعد ذلك ادار المندوب اليـد التي صيغت على مثال « امينمحعت الثالث » مجرى الماء للقناة من الخزان وانما صيغت اليد على مثال « امينمحعت الثالث » الذي حكم مصر منـذ الفين وثلاثمائة سنة تقريباً لما عرف عن هذا الملك القديم في التاريخ من انه أول من حاول بصفة جدية ضبط مياه النيل لحسن ري الاراضي كما تذهب الاساطير الى انه هو الذي أنشأ بحيرة موريس

وفيما الماء يندفع من احدى بوابات القناطر في ترعة الجزيرة وقف مطران السودان المحترم جوين ووقف الى جانبه مفتي السودان الشيخ اسماعيل الازهري فوق العين التي يتدفق منها الماء وتليا عبارات التبريك لهذا الماء الخصب المنساب الى أراض لم تكن تعرف الخصب ولا الزراعة من قبل ووقف الحضور جميعاً اثناء تلاوة صلاة التدشين التي فاه بها المحترم جوين وخطبة المباركة التي القاها المفتي الازهري وصلاة المطران جوين الثانيــة ومنهم من يبتهل الى الله مخلصاً أن يبارك هذا العمل العظيم المجيد ومنهم من ينظر بعين الحذر الى ما سيكون من نتائجه

ولست أنكر ما كان لهذه الحفلة الدينية التي لم أحضر من قبل مثلها من أثر في نفسي على اني كنت أحسبها تكون أعمق في النفوس أثراً لو أن الرجلين اللذين قاما بها لم يكونا بعيدين عن الحضور حتى لم يسمع أحد صوتهما الذي غرق في ضوضاء الماء المنحدر ، والذي ربما أدى بغرقه في هذه الضوضاء الى زيادة هذا الماء بركة

وهذه صلاة التدشين الاولى التي تلاها المطران جوين حسب ترجمتها الرسمية

اللهم القادر على كل شيء ، الأزلي الأبدي ، مبدع العالم كله وخالقنا جميعاً ، من جعلت نظاماً يسير عليه العالم أجمع ، وبلاد السودان أيضاً

نشكرك اللهم من أجل عبيدك ، تشارلس جورج غوردون ولي اولغر فترموريس ستاك ومن أجل جميع الذين عملوا في خدمة هذه البلاد وضحوا بحياتهم في سبيل تمهيد خططك

انا نشكرك للحكمة والساهة اللذين وهبتهما الى اولئك الذين ابتكروا فكرة تسخير مياه هذا النهر لخدمة الانسان وانا نذكر امامك بنوع خاص ، عبيدك وليم جارستن وهربرت هوراشو كتشنر ، اللهم انا نشكرك أيضاً من أجل جميع ، الذين اشتغلوا لانفاذ هذه الاعمال ، من أجل الذي وضع رسومه ومن أجل مهندسيه ، ومن أجل المقاولين ، والصناع ، اصحاب الحرف من جميع الملل والنحل ، ومن أجل العمال الذين حفروا الأرض

ومن أجل البنائين الذين سووا الاحجار و بالاجمال من أجل جميع الذين وهبوا قواهم البدنية وحذقهم وعقولهم في سبيل هذا العمل وساعدوا بالجاره ان كان ذلك بمعرفة منهم أو بغير معرفة أو كان ذلك باستعمال ذكاءهم المفرط أو كان ذلك بقليل من الذكاء

انا نشكرك اللهم ونحمد العناية الصمدانية التي وهبتها بنوع خاص في أشد أوقات الخطر اثناء أدوار البناء ، ونحمدك فوق كل شيء من أجل الامطار التي ترسلها على الجبال فتسبب فيضان النيل وتهبنا المياه التي تروى الارض بها

لك اللهم العظمة والقوة والمجد والظفر والجلالة

كما في السماء ، وما في الارض هو لك ، الملك ملكك يا إلهنا بيدك القوة والجبروت ، وبيدك تعظيم وتشديد الجميع . وتهب القوة لهم جميعاً ، نتضرع اليك بخضوع وخشوع أن تقبل شكرنا هذا باسم وبواسطة ربنا يسوع الذى علمنا أن نصلي هكذا

أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك،ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الارض اعطنا خبزنا كفاة يوما واغفر لنا ذنوبنا كما نحن ايضاً نغفر للمذنبين الينا ولا تدخلنا في تجربة وانقذنا من الشرير لأن لك الملك والقوة والمجد الى الأبد آمين

وهذه هي الصلاة الثانية التي القاها المطران جوين كذلك

أيها الالٓه القادر على كل شيء ، الأزلي الذي لا يتغير ، الحكيم وحده ، وأب البشر اجمع انا نضرع اليك أن تبارك هذا الخزان ، ومشروع الري ، ليس فقط لأن ثروة الناس ونجاحهم سيزيدان بواسطتهما ، بل لأنه اذا استعمل الناس هذه الهبات التي هي ملك كما يجب يرون حكمة وعلماً . وديناً ، وصلاحاً حقيقياً

انظر اللهم الى هذه البلاد ، بالرحمة واللطف وامنح بأن تسود الحرية والعدل والصلاح حيث كانت الشدة والاستبداد والظلم تطأ بأقدامها على شعبك ، قد دلت في كتابك المقدس أن سيأتي اليوم الذي به يطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل

نسألك اللهم أن تعلم طرق السلام الى اولئك الذين كانوا

مصطرين ان يعيشوا من الحرب فى الزمان العابر وامنحهم الاتحاد والوفاق ، امنح بأن يتمموا اعمال خلاصك العجيب بواسطة تأثير عنايتك الدائمة التي تعمل بينا بدون أن نشعر

دع العالم أجمع يشعر ويرى أن الامور التي بدوها خاباً قد عادت فارتفعت ، وان تلك الامور التى قدم عهدها تتجدد الآن ، وبالاجمال ان جميع الامور تعود الآن الى الكمال بواسطتك يا مسع جميع الامور ، لك البركة والشكر آمين

البركة

ليبارككم الله ويحفظكم ، ليضىء بوجهه عليكم ، ويمنحكم نعمته لتنيركم أنوار محياه ، وليهبكم السلام من الآن والى الابد آمين

أما خطبة فضيلة مفتي الديار السودانية في حفلة فتح خزان سنار فهذا نصها

أيها السادة

انا نقف هذا الموقف لنرفع اكف الضراعة بالحمد والشكر لله الذي جلت قدرته وتعالت عظمته وارتفع شأنه وعز سلطانه على ما أولانا من النعم الجليلة التي منها اتمام هذا البناء الشامخ ومشروع ري الجزيرة العظيم فان الشكر على النعم واجب وبه تزداد قال الله في كتابه العزيز (لئن شكرتم لأزيدنكم)

الحمد لله نحمده ونستعين به ونشكره فانه منشيء الكائنات بارىء النسمات مقدر الاقوات ونصلي ونسلم على رسوله الذي أتى بالهدى والبينات لاصلاح حال الناس في الحياة الدنيا وفي الآخرة فقد ورد (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) وعلى اخوانه من النبيين والمرسلين ومن نهج نهجهم القويم واهتدى بهديهم الى الصراط المستقيم

أما بعد فان الله تعالى خلق هذا الانسان محتاجاً الى الطعام والشراب واللباس وهيأ له من الامور الكونية ما يكفل له بقاءه في هذه الحياة على أصلح الوجوه متى استعمل فيها فكره ومواهبه التي فطره عليها خلق السحاب والامطار ممدة للعيون والانهار التي بها حفظ حياته فقال في كتابه العزيز (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وخلق له الارض مستعدة لانبات جميع النباتات التي يحتاج اليها لنفسه ولأنعامه (ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء) (وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج) (الذي جعل لكم الارض مهاداً وسلك لكم فيها سبلاً وانزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم ان في ذلك لآيات لأولي النهى) (الله الذي خلق السموات والارض وانزل

من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الانهار وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) (علّم الانسان ما لم يعلم) وأتاه الحكمة والعلم النافع (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) فهداه الى أنجع الطرق للاستفادة من هذه الأنهار

وستصير هذه البلاد بواسطة هذا العمل العظيم من اكثر البلاد انتاجاً وثروة وسيصير الشعب السوداني في رغد من العيش ونعمة ورفاهة

ولله ذي الطول والاكرام الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير الثناء والشكر الخالص على هذه النعم التي لا تحصى

ونسأله جل شأنه أن يبارك في هذا العمل ويديم النفع به لخير البلاد والعباد آمين

اللهم اجعل هذا القطر آمناً مطمئناً في سخاء ورخاء وعدل واشمله بعنايتك ورعايتك وامطر عليه شآبيب خيرك بفضلك وكرمك واحسانك انك سميع قريب مجيب الدعاء والسلام

***

بعد هذا التبريك انتهت حفلة افتتاح خزان سنار وآن لكل هذه الجموع أن تتفرق

العودة الى الخرطوم

عند مخازن قطن السودان فى بركات

انتهت حفلة افتتاح خزان سنار التي دعينا لشهودها وآن لنا أن نعود بالقطار نتناول فيه طعام الغداء ثم ننزل منه عند بركات نشهد أحد وابورات الخليج بها ونستمع الى الخطاب الثاني الذي يلقيه فخامة لورد لويد مندوب انكلترا السامي

واذ كانت هذه الحفلات كغيرها من الحفلات الرسمية أقرب الى أن تكون مظاهرات منهـا إلى أى شيء آخر وكان خطاب لورد لويد يجب أن يتناول الحـديث عن زراعة أراضي الجزيرة والقطن النامي بها والناتج منها ولم يكن لورد لويد قد حضر الى السودان من قبل أبداً ، فقد وجب أن يستقل فخامته وقرينته سيارات يصحبهم فيهـا رجال حكومة السودان ويطوفون وإياهم بعض مزارع القطن لكي يكون حديث المندوب السامي عن علم أو عما يشبه العلم في نظر المستمعين لذلك استقل هو ومن كان في صحبته سـياراتهم على أن يمروا بالمزارع واستقللنا نحن القطار والى الملتقى ببركات

ها نحن الآن نشهد بعيداً ضيوف الحاكم العام بحفلة فتح

الحران مجتمعين في عربات القطار لقد جاؤوا من مصر وانكلترا زمراً ولم ير بعضهم بعضاً في اجتماع واحد ولقد دعي كثير من أعيان السودان لشهود الحفلة ممن رأيناه في يوم عيد الملك وممن لم نر في ذلك اليوم وقد قمنا من الخرطوم في المساء بعد ما تناولنا طعام العشاء بفنادقها،وشغلنا عند سير القطار بالهاتفين والمزغردات وذهب أكثرنا بعد ذلك الى مخدعه،ثم تناول الاكثرون طعام الافطار في مخادعهم كذلك لهذا لم يتيسر لأحد أن يرى جميع زملائه في الضيافة الا حين حفلة مكوار لكن الذين اجتمعوا لشهود الحفلة من موظفين وغير موظفين جعل التفرقة بين الضيوف وغيرهم عسيراً فلما تحرك القطار وباعد بيننا وبين الالوف التي حشدت لتهتف للمحتفلين لم يبق الا نحن الضيوف وشعر كل واحد منا بما بينه وبين صاحبه من صلة الضيافة، فكنت ترى كثيراً من الابتسامات تتبادل ومن التحيات تتهادى

ثم كانت فرصة أخرى لزيادة التعارف تلك فرصة تناول طعام الغداء في عربة الاكل فقد هرع الناس الى هنالك بعد سير القطار القطار بدقائق،واستبقوا يتخير كل منهم مكاناً صالحاً ولم تعن حكومة السودان بتحديد الامكنة في تلك العربة كما عنيت بتحديد مخادع النوم فكان السابق صاحب الاختيار وكان جماعة الاوربيين انكليز وغير إنكليز أسبق منا نحن الشرقيين الذين نرون في الاسراع

الى الطعام شيئاً من التاني مع الكرامة لما قد يكون فيه من دلالة على الشره لذلك الفينا نصف العربة الاول امتلأ و بقي نصفها الثاني خالياً أو يكاد فتحيرنا في هذا القسم الثاني أما كنا وجعلنا ننتظر من يجلس وإيانا فيه بينا كان الخدم يقدمون الطعام لأهل القسم الأول أين جيراننا وزملاؤنا في الطعام ؟ أولئك أعيان السودان وهم أشد تباطؤاً الى الطعام وتظاهراً بعدم الاكتراث به لعس السبب الذي جعلنا نتأخر عن زملائنا الاوربيين لكن هاهم بدأوا يفدون واحد بعد واحد وهذا جانب العربة يكاد يمتلأ لكن أين السير سيد علي الميرغني ؟ ابعثوا في طلبه احفظوا له مكانه وذهب كبير من موظفي حكومة السودان يبحث عنه ثم جاء وإياه على مهل فأجلسه على المائدة المقابلة لمائدتنا

وأشار جليسي الى أحد أعيان السودان وسألني ان كنت أعرفه، ثم أخبرني انه الشيخ علي التوم الذي أنعم عليه بلقب « سير » يوم عيد الملك وهو رجل طويل القامة نحيف الجسم تبدو عليه مظاهر القوة والشدة قال جليسي

— « قد يدهشك ان تنعم حكومة صاحب الجلالة البريطانية على مثل هذا السودي باللقب العظيم الذي أنعمت عليه به والذي لم تنعم به في مصر الا على رؤساء وزارات كذلك تزول دهشتك اذا علمت ان في إمرة هذا السادح الى رجل يتحركون باشارته

ويدينون لطاعته والانعام عليه يفيد ولاءه للحكومة وللتاج البريطاني ويقيده بهذا الولاء فعلاً واذن فهذا اللقب الذى لا يكلف حكومة الامبراطورية شيئاً قد كفل لها ولاء الى رجل كلهم عتاة شداد لا يعصون هذا الرجل ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون

وكأنما شعر جماعة من أعيان السودان الذين جلسوا الى جانبنا انا نتحدث عنهم فنظروا الى ناحيتنا نظرات حذر وتأهب ثم خاطبنا أحدهم بلهجة عسر على أن أفهمها فرد عليه جليسي بعبارة لطيفة وآليت أن لا أتحدث عن هؤلاء الناس اثناء الطعام بشيء حتى لا أثير ما يدفعهم الى التأهب من جديد بل لقد حاولت أن لا أنظر اليهم كيف يتناولون الطعام مخافة أن يحسبوا أنها نظرة نقد والظاهر أنهم في شدة ولائهم لحكومة بلادهم وللحكومة الانكليزية التي تنعم عليهم وتبر بهم يخيل اليهم أني أريد كمصري أن أثير عندهم ثائرة أو أثير شبهات الحكومة حولهم أو لعلهم وقد رأوا الى جانبهم وكيل ادارة المخابرات — وهي الادارة المختصة بالامن والمهيمنة عن أسراره — خشوا أن يؤخذ ما قد يكون من مرونة في القول أو لين فى حديث متبادل على أنه ميل منهم لحكومة مصر والميل لحكومة مصر كان يومئذ لا يزال معتبراً ميلاً للثورة والثائرين رغم ان كانت الحكومة القائمة يومئذ في مصر حكومة زيور باشا المستعدة للاعتراف بالسودان بل للاعتراف بمصر مستعمرة انكليزية

برغم هذا الحذر والتأهب الذي دفعت به الى نفوس أعيان السودان أحداث السياسة كنت تلمح في وجوههم من علائم الشهامة والكرم والمروءة ما يذكرنا بأجدادنا المصريين الذين لم يكونوا قد تأثروا بعد بالمدنية العربية ولم تكن النظم الحاضرة قد دفعت الى نفوسهم ما نرى اليوم عند كثيرين من حرص على المادة وانغماس في أسباب تحصيلها بل كنت ترى أكثر من هذا كنت تحس هؤلاء الاعيان يشعرون بشيء من الضيق لهذه التكاليف الرسمية ثم يغتبطون بما تنطق به من صلة بينهم وبين الحاكم لكنها في نفس الوقت لا تتفق وطباعهم الصريحة التي لا تعرف القيود ، ولعل الكثيرين منهم في ذلك مثلهم مثل شيخ عرب من أكارم المصريين توفي من أكثر من عشرين سنة كان يذهب الى التشريفة لمقابلة الخديو مع سائر الاعيان في كل عيد من الاعياد وكان يتضايق غاية الضيق من الجبة والقفطان فكان يذهب في ملابسه العادية والتي تنم عن بساطته وكرمه وحبه الانسانية والتي تتكون من زعبوط وحرام ، الى حانوت على مقربة من عابدين حيث يخلعها ويرتدي الملابس الرسمية مدى الساعة التي يدخل فيها قصر عابدين ويمثل فيها في حضرة الامير فاذا تمت هذه المهمة التي كان يغتبط بها أسرع الى حانوته فألقى ملابسه الرسمية ولبس زعبوطه وحرامه وعاد كما كان

شيخ العرب الكريم السخي اليد الذي يريد أن لا يشعر فقير الى جانبه بالفقر ما دام يرى هذا المحسن اليه في لباس بسيط كلباسه

وانطلق القطار الى بركات فبلغها حوالي الرابعة بعد الظهر ثم سار بعد ذلك على مهل الى وابور الخليج ما هذه الجموع الحاشدة التي تريد على جموع مكوار !! احسب ان حكومة السودان قد حشدت من في السودان جميعاً لهذا اليوم فهؤلاء لا شك يزيدون على خمسة عشر الف رجل وهؤلاء لبسوا البياض فلعله لهم أو لعل الحكومة تتركه منحة منها إن كانت هي التي خلعته عليهم

نزلنا من القطار في ساحة فسيحة يتسع جانبها البعيد عنا لهذه الألوف الحاشدة وفصل بيننا وبينهـا فضاء متسع وضعت في ركن من أركانه اكياس القطن التي أتى بها للمحلج، وقام وابور الخليج وبه ثمانون دولاباً في وسط الساحة، وهذا الوابور واحد من أربعة يشتغل في كل منها مائتين وخمسون عاملا وسرنا تغمرنا شمس يناير الدافئة الذيعة المنعشة حتى دخلنا بناء الوابور المقام من الصاج اليس عجباً أن تمتد يد الحضارة لتقيم في هذه النواحي البادية هـذه الالآت الضخمة العظيمة اتى بها من انكلترا على متون البحار قطعاً وهذه هي تدور الآن مكينات ضخمة قوية تحلج مئات القناطير وتقدم لمئات السودانيين عملا كانوا في غنى عنه قناعتهم بعيش البداوة الهنى لكن انكلترا يجب أن تتعدى بالقطن ليدل عمالها واشرافها اكثر

حظ يريدون نواله من المتاع بالحياة فيجب لذلك أن يخرج أهل السودان وغير أهل السودان على ما ألفوا منذ مئات السنين وأن ينتحوا القطن وغير القطن كارهين لهذا المجهود أول قيامهم به فإذا ألفوه، وألفوا مايدره عليهم من ربح وما يوفره لهم في الحياة من نعيم استزادوا منه ما أطاقوا الاستزادة ثم تراهم بعد ذلك ولهم في الحياة مثل ما لعمال الانكليز وأشرافهم من مطامع يومئذ لا يكون مفر من احتكاك فتفاهم وذلك شأن النظام الفردي في الاقتصاد، ذلك النظام البديع القائم على أن تعني كل ذاتية، سواء كانت فرداً أو هيئة أو أمة، بمصلحتها، وان تنافس غيرها في السعي لتحصيل هذه المصلحة في غير ظروف ممكنة فهو ينتهي دائماً الى السير بالانسانية في سبيل التقدم وهو من غير شك الحركة الدافعة التي تصل،عن غير شعور من القائمين بها الى هذه الغاية الانسانية السامية غاية تفاهم الجميع لخير الجميع ولخير كل فرد أو هيئة أو أمة يتكون منها هذا الجميع

درنا في أرجاء واورا خيبخ ثم خرجنا من باب غير الذي دخلنا منه فإذا أمام هذا الباب الذي مصطبة كبيرة قيمت عليها مظلة تحتها مائدة عليها معظم الصوت ومن حولها مقعد أعدت ليجلس عليها المندوب السامي البريطاني وصحبه وليقوم بالقاء خطابه ينوه فيه بأعمال الحضارة التي قامت بها بريطانيا في السودان،على هذه الألوف من

السودانيين الذين حشدوا له، والذين لا يعرف أحدهم من الانكليزية حرفاً ولا يستطيع واحد في كل مائتين منهم أن يدرك - ان هو استطاع ان يسمع - ما في ترجمة هذا الخطاب الى العربية

وأعدت للصحافة مناضد وضعت عليها أقلام الرصاص و (بلوكنوت) من ورق صقيل، كما مهدت للصحفيين من قبل كل وسائل العمل للاسراع في إرسال رسائلهم البرقية الى أنحاء العالم المختلفة يذيعون فيها أخبار هذا الاحتفال البريطاني، في مناطق خط الاستواء، بعمل من أعمال الحضارة العظيمة قامت بهِ بريطانيا خدمة للحضارة في العالم، وان كانت خدمة تفيد أهل البلاد وتفيد بريطانيا نفسها

وبعد الساعة الرابعة بقليل أقبل لورد لويد ومن معهُ عائدين من زيارة مزارع القطن بالجزيرة فأحاطوا بالمنصة تحت المظلة وألقى لورد لويد خطاباً هذه ترجمتهِ

كان لي هذا الصباح كما تعلمون عظيم الاغتباط بافتتاح خزان سنار وتسجيل خطوة جديدة خطيرة لترقي السودان الاقتصادي. ومنذ الاحتفال مررنا بقسم من الاراضي التي أخصبها الخزان ولاحظناها ومن دواعي سروري أن تتاح لي الآن فرصة مقابلة من تقع عليهم التبعة الخطيرة، تبعة استغلال ما أنشئ الخزان له

لا يسع الزائر الذي يرى ما تم اليوم إلا أن يقدر ما أنفق في هذا المشروع من جهد وروية واقدام منذ سنة ١٨٩٩ عرف السر وليم

حارستن الدي عمل كثيراً لأهالي مصر والسودان مكسوبات سهل الحريرة ومن دلك الحين طلت المسألة موضع البحث الدقيق .
واستطيع شحصياً أن أقدر هدا العمل قدره بعد ما كان من حطي في اثناء عملي في الهند أن أفتتح وأشهد أكثر من واحد من مشروعات الري الكبرى التي قصد بها هناك كما قصد بها هنا الى تحسين حظ الزارعين وزيادة ثروة البلاد

تعرفون تاريخ المشروع ووقوفه في اثناء الحرب والصعوبات الهندسية العظيمة التي وجب التغلب عليها قبل اتمامه كما نراه اليوم .
والمسألة الآن هي كيفية الاستفادة الصحيحة من الموارد التي أسبغها على أهالي السودان عظيم ما أنفق من جهد ومال والجواب لا ريب عندي أن النجاح رهن باستمرار ونمو التعاون الذي قام المشروع على أساسه فقد اكتتب الجمهور البريطاني بما لا يقل عن احد عشر مليوناً وربع مليون من الجنيهات . وبررت الشركة من جانبها هذه الثقة بها بمباشرة الاعمال الزراعية وحفر الترع الصغرى بعــد نظر ومقدرة يقصر دونهما كل ثناء ، والقت درساً مدهشاً بتدريب عدد عظيم من الزراع عند الطلمات وأهم الاشياء ان علاقاتها بالزراع عموماً كانت علاقات عطف ومودة ولا سبيل للنجاح الصحيح ما لم يقم على قاعدة هذا العطف

وبعد أن أثنى على المستر اكستين قال

لقد تغيرت حالة السودان كلها في السبع والعشرين سنة الاخيرة فكانت البلاد قبل اعادة فتحها تزداد كل سنة انحطاطاً بدلاً من أن تتقدم، وكانت حروب القبائل وما تجر من الوباء والقحط وسائر الشرور التي تلازم عدم الطمأنينة على النفس والمال تهلك الحرث والنسل ، لذلك انقلبت مساحات واسعة كانت قبل عامرة الى أراض عامرة واشتد الظلم والقسوة ومن بينكم لا ريب من يذكر تلك الايام ومن عاش ليرى الشوك والسعدان ينقلبان مروجاً خصبة ، والضغط والقسوة يحل محلهما العدل والسلام وتشهد الاحصاءآت الرسمية بزيادة عدد السكان مذئذ الى ثلاثة أضعافه ، وأصبحت الثروة لا تقبض مصحح صاحبها مخافة أن ينتزعها منه مستبد. والغني والفقير يستطيعان السير آمنين حيث يشاءآن، وللقانون والنظام الحكم في كل مكان وفي السنة الاولى لاتمام الخزان زرع ثمانون الف فدان قطناً ، ومساحة عظيمة ذرة ينتظر أن تغل ثمانين الف أردب هذا العام ، وذلك كفيل بعدم جناية عرض مشروع الجزيرة الاول ، بزرع القطن لبيعه، على حاجات الشعب لمؤونته كفالة تطمئن من يذكرون قحط البلاد سنة ١٨٨٨ وما لحق بها من متاعب خطيرة سنة ١٩١٣ ونقطة هامة تستحق التنويه هي كفالة حقوق الاهالي بقانون سنة ١٩٢١ فهناك شركة بين الزراع والحكومة ،

والشركة اشتراك وثيق في المصالح يحمل كل طرف يسعى لانتاج أحسن محصول وأصحه .

وختم حضرته الخطاب بتهنئة موظفي المديريات وشكر الحاكم العام والتنويه بفائدة المشروع لاهالي السودان وتجارة جميع الامم

وكان يلوح على لورد لويد أثناء القائه هذا الخطاب أنه متعب مجهود فلم يكن في مثل ما كان ساعة القاء خطاب الصباح من نشاط وهمة ولـه العذر بعد هذا المجهود المضني الذي قام به هو وقرينته والذي لا يعتبر شيئاً الى جانبه ما قاما به من مصافحة أكثر من ثمانمائة مدعو في حفلة « يوم الملك » عملاً لمصلحة الامبراطورية العظيمة

وانصرفنا عائدين الى القطار ، وخفف عن هذه الالوف التي حشدت نطاق النظام الحديدي الذي أوقفها في أماكنها صفوفاً كما توقف الجند فاستفاد من ذلك بعض أفرادها . كانوا يحدثوننا أيام الطفولة ان سليمان عليه السلام حبس الجن وألزمهم بناء تدمر بالصفاح والعمد ، وانه ظل يرقبهم بنفسه فكان مجرد جلوسه عندهم كافياً لدأبهم على العمل والجد فيه ومات سليمان في جلسته وأسبل الموت عينيه ومع ذلك ظل الجن في دأبهم خيفة أن يكون اطباق السيد أجفانه لسنة أخذته فإذا شذوا عن أمره انزل بهم آلام العقاب فلما مال جثمان سليمان وهوى الى الارض وأيقن الجن موته انطلقوا فرحين

أشد فرح بعود الحرية اليهم وجعلوا يعيشون حيث شاؤا وكما شاؤا .
كان ذلك شأن هؤلاء الذين خفف نطاق النظام عنهم انطلقوا يعدون ملء سيقانهم ليملأوا هذا الفضاء الذي كان يفصل بيننا وبينهم حتى صاروا عقبة في سبيل وصولنا الى القطار فلما وصلنا اليه بعد جهد الفيناهم أحاطوا به من كل جانب حتى تعذر الصعود اليه ، واضطررنا للالتجاء إلى القائمين بأمر النظام في هذا المكان الذي تولاه هرج أي هرج وعجز حماة النظام عن معاونتنا فتفقنا لأنفسنا الطريق بين هذه الجموع المائجة التي ظل لديها من الاحترام لنا ماتوجبه عليها الشرقية المتسامحة من اكرام الضيف وحماية الغريب

فيم هذا الفرح والمرح ؟! ما هذا الضجيج الذي تثيره هذه الخلائق المندفعة صوب القطار في حماسة وجيشان ؟!. صه ! ان لها من وراء اندفاعها لغرضاً سامياً عظيما انها تلتمس بركات صاحب البركات السيد على الميرغنى

نعم! فقد أقبل السيد الى عربته بالقطار فطار فى اثره مئات من السودانيين لا يقترب اليه منهم أحد ولكنهم يتبركون بمواطىء قدمه ويطلبون اليه فى خشوع وابتهال كلمة الرضا والغفران . فلما صعدنا العربة رأيتهم احاطوا بهـا وجعلوا يلمسون بأيديهم عليها يتملون من بركاتها مايتملى به اولئك الذين يزورون الاولياء الصالحين فى مقابرهم ولعلك إن تحدثت الى احدهم فيما يفعل قال لك إن عربة

القطار التي يحلها ولي صالح كالسيد المرعى اكثر حياة و بركة من صريح به رفات ولى كان من الصالحين ولعله يقول لك ذلك في إيمان ناسيا أن اولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأنهم بعد موتهم احياء عند ربهم يرزقون .

أشرت فى فصل « عيد الملك » الى إيمان اعيان السودان بالسيد على هـذا الايمان المرتسم على وجوههم البادي في نظراتهم المتجلي في كل حركاتهم حين اقبالهم مسرعين في خشوع واجلال يقبلون يده و ينظرون من طرف كسير نظرة كلها الأيمان والاجـلال ورجاء الرضى وحسن الدعاء وأما إيمان عامة أهل السودان بالسيد فيفوق ذلك اضعافاً مضاعفة و يتجلى فى صورة من التعبد لا تبعد كثيراً عن العبادة رأيت بعيني جماعة منهم تقبل سلم عربة السكة الحديد لأن قدم السيد وطئتها . وكنت تسمع هذا الجمع الحاشد حول العربة متهلااليه أن يكون واسطة له عند الله فيالمغفرة ولو أن السيد أمرهم في سبيل ذلك ما أمرهم لما عصوا له أمراً ولا خالفوا له كلمة ولو انهم ظفروا من فضل رداء السيد بخيط واحد لاقتتلوا عليه يريد كل أن يكون له أو ان يلمسه إن لم يستطيع امتلا كه .

انظر ! هذا حن سليمان فك عقاله فهذه الالوف الحاشدة ترحف نحو القطار زحفاً وهــذه كلها تصطف على مقربة منه صفاً صفا . وهؤلاء افراد اشد من غيرهم حماسة في إيمانهم يجاهدون ليشقوا لأنفسهم

الى عربة السيد طريقا ولامنفذ لنا من هجومهم علينا الا إيمانهم بالسيد وفرط حرصهم على رضائه . ولا مفر لآذاننا من سماع ضجيج دعواتهم الى أن ينطلق القطار فيحملهم وراءه

انطلق القطار ، فارتفعت الاصوات بالتهليل والتكبير . احسبت انهم جميعاً وقفوا عند تهليلهم وتكبيرهم . كلا بل انطلق جماعة منهم يسابقون القطار محاذين عربة السيد وسيقانهم الدقيقة واعصابهم المتينة تجعل منهم من هو اعدى من السليك

انقطعت الصحة وأخذ بالعادين الجهد وأبديت الى صاحبي الموظف الكبير بحكومة السودان عجبي لهذا الايمان قال لا تعجب . فقد ذهبنا من نحو خمس عشرة سنة لافتتاح خط كسلا ومعنا السيد . وعلم أهل ذلك الاقليم بالامر فأحاطوا بالقطار أول دخوله إقليمهم لا يخشون أن توردهم عرباته الحتف أثناء سيره، بل تعلقوا بهِ صاحين مهللين يلتمسون من السيد دعاءه وبركاته مما اضطر سائق القطار للسير الهوينا مخافة أن يذهب بهذه الارواح الصارخة، ودخلنا لذلك متأخرين عدة ساعات عن الموعد المضروب لدخول القطار واقامة الاحتفال

قال آخر ولو علمت يا سيدي أنهم ما يزالون اذا دخلوا الى داره بالخرطوم دخلوا الى البهو الذي هو فيه زحفاً على أيديهم وسيقانهم وعيونهم ناكسة في الارض لا ترتفع له منهم نظرة

لقدرت مكانة السيد العظيم وسلطانه الديني ثم لو علمت مع ذلك أنه لا يسخر هـذا السلطان الديني لدعوة سياسية ولا يطمع في شيء الا أن يسود السلام بلاده لأكبرت من قدره فوق ما أكبرت ولعلمت أنه أوتي من الله حكمة وفضلاً عظيماً

* * *

وأمعن القطار في انطلاقه وعدنا بعد تناول طعام العشاء الى مخادعنا وانا لنعد عدتنا للنوم إذ بلغنا واد مدني فصعد الى القطار جماعة من الشبان المصريين الذين ما يزالون مقيمين بالسودان وقصدوا الى مخدعي ، وبعد تبادل التحية سألوني أن أنزل معهم الى رصيف المحطة لنكون بعيدين عن الانظار والأسماع وهذا بعض مظاهر الحذر الذي أشرت اليه من قبل فمنذ قتل السير لي ستاك في القاهرة وربطت انكلترا على قتله إخراج الجيش المصري من السودان قامت حكومة السودان باحاطة المصريين المقيمين في ربوعه برقابة شديدة مخافة أن يثيروا في السودان روح التمرد والعصيان على ان هؤلاء الشبان الذين أحاطوا بي في واد مدني كغيرهم من المصريين الكثيرين الذين قابلتهم كانوا أشد ميلاً لاعتبار حركة سنة ١٩٢٤ حركة طائشة لاسباب عدة ولعل أهم هذه الاسباب في نظرهم ما أتاه كثيرون من الضباط المصريين من تصرفات أدت الى عدم رضى

السودانيين ويسرت نشر الدعوة ضد الحكم المصري في السودان .
ولست أدري مبلغ ما رووا من الصحة . الا أنهم كانوا يتهمون هؤلاء
الضباط بأنهم لم يكونوا يعرفون الا شهواتهم وانهم كانوا يقضون
النهار وطرفاً من الليل في استيفائها ، سواء منها الطبيعي والشاذ وسواء
منها المطعوم والمشروب وقد يكون لبعض هذه التهم قوام والحكومة
المصرية لم تعن بأن يكون نائباً عنها في السودان رجل له مقام الوزير
وسلطانه على المصريين الذين في السودان على الأقل

كذلك كان من شكوى هؤلاء الشبان المصريين الذين تحدثوا
إلي في واد مدني أن بعض السودانيين الموحودين بمصر لا يلقون
من عطف المصريين عليهم ما يلهج السنتهم بثناء يتردد في مختلف
جوانب السودان ويدل دلالة حقيقية على عواطف الأخوة الصادقة
بين أجزاء هذا الشعب المتصل بأوثق الروابط وأمتنها والمقيم على
ضفاف النيل الذي يسبغ عليه الحياة ونعمتها

وتركت هؤلاء الشبان الذين ودعوني بحفاوة شكرتهم واشكرهم
اليوم عليها وعدت الى مخدعي في القطار ثم عاد القطار الى انطلاقه
فآوينا الى مضاجعنا ونمنا فيها نياماً حتى استيقظنا في الصباح على
مقربة من الخرطوم فأخذنا افطارنا وتهيأنا للعودة الى فنادقنا نأوي
الليلتين الباقيتين على مغادرتنا ربوع السودان

خزان سنار

ومشروع ري الجزيرة

« خزان سنار » اصبح الآن الاسم الرسمي لهذا الخزان القائم على النيل الازرق تحجز مياهه لري اراضي الجزيرة الواقعة بين النيلين الابيض والأزرق لكن هذا الاسم لم يخلع عليه بصفة رسمية حاسمة إلا في حفلة افتتاحه أما الى يومئذ فكان كثيرون يسمونه خزان مكوار باسم البلد الذي بني عنده، كما سمي خزان اصوان باسم اصوان ويحكون عن تغيير الاسم من مكوار الى سنار حكاية طريفة اقصها هنا من غير أن اكفل صحتها ذلك ان مكوار عائلة كبيرة في هذه المنطقة من مناطق السودان استوطنت الجهة واطلقت اسمها على البلد الذي استقرت به ثم كان ان عدا الدهر على العائلة فتدهور حالها وذهب احد أبنائها يلتمس معونة الحكومة على غدر القدر ولما سئل عما قدم هو أو اهله للحكومة من خدمة تبرر هذه المعونة قال « يكفي اطلاق اسم عائلتنا على هذا العمل الهندسي العظيم الذي يخلد ذكر هذه الحكومة وذكر بريطانيا » فكان الجواب رفض المعونة وتغيير نسبة الخزان من القرية الواقع عندها الى مديرية سنار القائم حيالها

وخزان سنار واحد من أعمال الري الكبرى التي يراد باقامتها ضبط مياه النيل فما يزال القسم الأكبر منها يضيع في البحر الأبيض المتوسط مع إمكان الانتفاع به لري ملايين الأفدنة القريبة من النيل والصالحة للزراعة لولا عدم وصول المياه لها وسنتناول حديث هذه المشروعات في الفصل الآتي من فصول هذا الكتاب.

ولم يشيد خزان سنار إلا بعد أن قامت الحكومتان المصرية والسودانية بعمل مباحث مستفيضة عنه وعن سائر مشروعات الري الأخرى وبعد ما أجريت تجارب كثيرة لمعرفة مبلغ صلاح ارض الجزيرة لزراعة القطن ذي التيلة الطويلة من نوع قطن السكلاريدس المصري فلما نجحت هذه التجارب اقدمت حكومة السودان على انشاء الخزان الذي حضرنا حفلة افتتاحه

وكان السر وليم جارستن مستشار وزارة الاشغال المصرية اول من لفت النظر لامكان ري سهل الجزيرة ريًا صناعيًا في سنة ١٨٩٩، وايده في تقرير قدمه سنة ١٩٠٤ اللورد كرومر قنصل بريطانيا الجنرال في مصر والى ذلك الوقت كانت فكرة زراعة القطن في مساحات واسعة بأراضي الجزيرة لا تزيد على خيال لذيذ يخطر اليه الانكليز بعين الرجاء ذلك أن زراعة القطن لم تكن غريبة عن تاريخ السودان فقد روى المسيو بونسيه الذي زار سنار مع المبشر زافريوس دي برفان سنة ١٦٩٩ أنه وجد بها مائة الف من السكان رائجة تجارتهم في

تصدير القطن الى حد ان اتفق السلطان الازرق — وذلك هو اللقب الذي كان يطلق على أمير هذه المنطقة الواقعة على النيل الازرق — مع ملك الحبشة على إبقاء ضابط بالنيابة عنه في شلحا عند حدود الحبشة لتحصيل العوائد على القطن الصادر واقتسامها شطرين يأخذ كل امير منهما شطراً كذلك روى بركار الذي زار سندي في سنة ١٨١٤ أن أهم صادرات سنار كان الدمور المصنوع من القطن، كما روى ان مصانع القطن في سنار وكردفان هي التي كانت تمون القسم الاكبر من افريقيا الشمالية بالملابس على ان هذه الصناعة انحطت في السودان وتدهورت لقيام الصناعة الكبرى في اوروبا ومزاحمتها الصناعة اليدوية في الاسواق مزاحمة لم تقو هذه الصناعة اليدوية على البقاء امامها طويلاً لذلك انقلب السودان الى زراعة الحبوب واطلق على سهل الجزيرة انه مخزن حبوب السودان كافة فلما استعادت الجنود المصرية السودان بعد ثورة المهدي كانت زراعة القطن وصناعته قد تدهورت فيه واصبحت ضئيلة أشد الضآلة

ولما قدم السر جارستن تقريره عن إمكان ضبط مياه النيل الازرق لري الجزيرة بدأت حكومة السودان في ديسمبر سنة ١٩٠٤ بمساحة اراضي هذا السهل المترامي الاطراف وتقرير حقوق ملاك هذه الاراضي وقد استمرت المصلحة التي انشئت لهذه المساحة قائمة بعملها حتى أتمت القسم الاعظم منه في سنة ١٩١٢ كذلك

مدت الحكومة خطاً حديدياً ما بين الخرطوم وسنار بدأت العمل فيه في سنة ١٩٠٩ ووصلت به الى سنار في سنة ١٩١٢ ثم اخترقت به أرض الجزيرة من جنوبها حتى وصل الى كوستي على شاطىء النيل والابيض اتجه الى بلدة الابيض وفي الاثناء بدأت الحكومة تجربة زراعة القطن فأقامت في سنة ١٩١١ محطة طلمبات عند بلدة الطيبة على الشاطىء الغربي للنيل الازرق وحفرت الترع التي تأخذ مياهها من محطة الطلمبات هذه لتعدي ثلاثة آلاف فدان زيدت بعد ذلك الى خمسة آلاف وعهدت حكومة السودان في القيام بهذه التجارب الى نقابة زراعة السودان لما كان لهذه النقابة من سابقة القيام بتجارب زراعة القطن بزيداب في شمال الخرطوم وبدأ نجاح تجربة الطيبة نجاحاً باهراً في سنة ١٩١٣ . فدعا هذا النجاح الى ضرورة التفكير في أصلح طرق الاستغلال وكان لورد كتشنر يومئذ قنصل بريطانيا الجنرال في مصر فتوسط في الامر وأتم الاتفاق على أن تكون حكومة السودان مسؤولة عن الترع الكبرى في كل ناحية يزرع القطن فيها وان تكون نقابة زراعة السودان مسؤولة عن الترع الصغرى وعن ادارة المشروع كله وامداد المزارعين بالأموال اللازمة لهم وان يقوم المزارعون بالعمل في الاراضي وان يوزع محصول القطن الناتج من الزراعة بنسبة خمس وثلاثين في المائة منه للحكومة وخمس وعشرين في المائة للشركة والاربعون في المائة

الباقية تكون للمزارع كما تكون له سائر الحاصلات التي تنتجها الارض في هـذه السنة عينها ، سنة ١٩١٣ ، وعلى أثر زيارة لورد كتشنر للسودان مع الفنيين في الري من رجال الحكومة المصرية ، وبعد ان رفضت الحكومة المصرية ضمان القرض الذي اريد اصداره بمبلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات لاقامة خزان سنار ونجاح مشروع ري الجزيرة ، في هذه السنة أقر البرلمان البريطاني الحكومة الانكليزية على ضمان هذا القرض وعلى ذلك بدئت الاعمال التمهيدية لبناء الخزان في سـنة ١٩١٤ لـكنها اوقفت عـند ما شبت نيران الحرب الـكبرى .

وقد رفضت الحـكومة المصرية إذ ذاك ضمان هذا القرض لأنها رأت الأمل ضعيفاً في استرداد ما دفعتـه للسودان سداداً لعجز ميزانيته بما بلغ احد عشر مليوناً من الجنيهات ، ولأن السياسة الانكليزية كان ظاهراً ميلها الى استئثار انكلترا بالسودان بعد ان تكون مصر قدمت له من الاموال ما مكنه من الاستقلال مالياً عنها . وربما كان للحكومة وللجمعية التشريعية عن ذلك من العذر أن الاموال التي دفعتها مصر للسودان في السنوات المتعاقبـة كانت ملايين عدة وضمان مصر لقرض الجزيرة قد ينتهي بأن تدفعه مصر فتضاف هذه الملايين الى تلك لتعود فائدتها آخر الأمر على انكلترا وحدها غير أن طائفة من المصريين كان لهم رأي غير هذا

الرأي . وكانوا يعتقدون ان كل عمل هدسي او مالي يربط مصر بالسودان يقوي حجـة مصر في السودان ويكون نقطة ارتكار لاولوية مصر في أن تمسك بيدها تصريف مياه البيل ويدهبون الى اكثر من هدا، إد يقولون ان حكومة السودان كانت على استعداد لأن يشترك المصريون ملاكاً ومزارعين في استعلال سهل الجزيرة ولكنهم أظهروا اعراضاً تاماً عن هدا الاشتراك كما اظهرت الحكومة المصرية الرعبة كل الرعبة عن أن يكون لها في استعلال السودان يد أو رأي

وربما كان هدا الدي يقال صحيحاً وربما كان مركز مصر في السودان عير ما هو اليوم لو أن الحكومة المصرية صمت قرص الجزيرة الاول الدي زيد بعد انتهاء الحرب من ثلاثة ملايين الى ستة لارتفاع أسعار الخامات والاجور اللازمة لاتمام ساء الخزان . وربما كان من الخير حقاً لو أن المصريين دهبوا لاستعلال هـدا السهل المترامي الاطراف وحققوا بدلك تحقيقاً فعلياً حجتهم بأن السودان هو المهجر الطبيعي لهم فلا سبيل لفصله عنهم لكن هـدا الدي تبدو صحته اليوم لم يكن واضحاً مثل هدا الوضوح قبل الحرب حين كانت انكلترا صاحبة السلطان الفعلي المطلق في مصر ، وحين كان المصريون في شـدة حدرهم من سلطانها في السودان يخافون أن يتقدموا نحوه خطوة لدلك كان لحكومته يومئد ، أو بالاحرى

كان للجمعية التشريعية التي رفضت ضمان الحكومة المصرية قرض الجزيرة ، العذر كل العذر عن هذا القرار

نحت مصر إذن عن الاشتراك في استغلال سهل الجزيرة وأقدمت انكلترا بتشجيع لورد كتشنر على الانفراد بهذا الاستغلال. وأقر البرلمان البريطاني ضمان الحكومة الانكليزية قرض الجزيرة فبدىء بالاعمال التمهيدية لانشاء خزان سنار ، ثم استعرت نار الحرب فأوقفت هـذه الاعمال لكن إيقافها لم يمنع من الاستمرار في قيام نقابة زراعة السودان باجراء تجارب جديدة خصوصاً بعدما تقرر أن تكون مساحة الاراضي التي يرويها خزان سنار ثلاثمائة الف فدان يزرع ثلثها قطناً في كل عام فأنشأت النقابة المذكورة في أوائل سنة ١٩١٤ محطة طلمبات جديدة في بركات لري ستة آلاف فدان . ثم أنشأت بعد ذلك محطة أخرى لري ١٩٥ فدان في ناحية الحوش بدأت استغلالها منذ سنة ١٩٢١ ، ومحطة رابعـة في وادي النو لري ثلاثين الف فدان بدأت استغلالها منذ سنة ١٩٢٢ وكان هـذا الاستغلال على قاعدة زراعة الثلث قطناً والثلث ذرة ولوبيـة وترك الثلث الباقي بغير زرع أي على قاعدة الدورة الثلاثية

ولم تكن غاية حكومة السودان ولا نقابة زراعة السودان من انشاء محطات الطلمبات هذه مجرد القيام بتجارب لزراعة القطن فقد

كانت تجربة الطيبة كافية منذ سنة ١٩١٣ لكن زراعة القطن كانت قد اندثرت من السودان قبل ثورة المهدي بزمن غير قليل . والمصريون المدربون على زراعة القطن رفضوا الاشتراك في الاستغلال وقد عطلت الحرب استمرار القيام بأعمال انشاء الخزان. فرأت الحكومة ورأت النقابة الاستفادة من هذا الظرف لتدريب أكبر عدد ممكن من المفتشين الانكليز ومن أهالي السودان ومن الوافدين عليه من النيجريا وغير النيجريا على القيام بهذه الزراعة ومراقبتها حتى إذا تم بناء الخزان وكانت الترع والقنوات في الثلاثمائة الف فدان التي أعدت في المشروع قد تم انشاؤها امكن زرع ثلثها أو ما يقرب من الثلث قطناً دفعة واحدة بمعرفة هؤلاء الانكليز المفتشين والاهالي المزارعين الذين تدربوا على زراعته . وقد أثبت الزمن بعد نظر الحكومة والنقابة في هذا الشأن اذ أمكنت زراعة ثمانين الف فدان قطناً على أثر تمام بناء الخزان مباشرة في شتاء سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٦

* * *

أما هذه الثلاثمائة الف فدان التي تقرر منذ البداية ان يتكون منها مشروع ري الجزيرة فتمتد على الشاطىء الغربي للنيل الازرق مبتدأة عند قرية الحاج عبد الله على بعد سبعة وخمسين كيلو متر الى شمال

مكوار حيث يقوم الخزان . (وقد نسي الناس في السودان اسم قرية الحاج عبد الله وأصبحت هذه القطعة معروفة عند المهندسين باسم الكيلو سبعة وخمسين) ثم تستمر في امتدادها شمالاً على محاذاة النهر وسكة الحديد مدى خمسة وثمانين كيلو متراً ويختلف عرضها من الشرق الى الغرب بين أربعة عشر وخمسة وعشرين كيلومتراً . ويسيرٌ وأمامك هذه الابعاد أن تتصور هذه القطعة من السهل المطمئن لا تقوم عليه ربوة من الربى ولا عقبة من العقبات محاذية النيل الازرق المخصب ، وأن تتصور الى جانب ذلك أنها ليست الا جزءاً من عشرة أجزاء من تلك الأراضي التي يمكن ريها بالمشروعات والتي تبلغ ثلاثة ملايين فدان من خمسة ملايين هي مجموع مساحة سهل الجزيرة . وان تتصور أخيراً ان هذه الثلاثمائة الف فدان تقررت سنة ١٩١٣ وها هي حكومة السودان وتقانة زراعة السودان تراها الآن غير كافية بالحاجة الزراعية مع أنها لم يبدأ بزرعها الا عام ١٩٢٥ — ١٩٢٦ أي منذ عام واحد فقط

وهذه الثلاثمائة الف فدان ، كغيرها من أراضي سهل الجزيرة، لم تكن ملكاً لحكومة السودان وهي ليست الآن ملكاً لها بل هي في ملك أهالي السودان الذين كانوا يزرعونهـا على المطر حبوباً جعلت الجزيرة — كما اسلفنا — مخزن حبوب السودان وقد رأت الحكومة ان نظام مشروع الجزيرة لا ينتج ثمراته إذا بقيت هذه

الأراضي تحت يد ملاكها ورأت من ناحية أخرى أنه لا بد لنجاح المشروع من أن تكون للاهالي مصلحة مادية فيه فاستأجرت أراضي المشروع لمدة أربعين سنة بايجار سنوي عشرة قروش للفدان كما اشترت الاراضي اللازمة للترع الرئيسية وغير الترع الرئيسية من المنافع العامة بثمن حسبه واحد للفدان ولما كانت مساحة هذه الاراضي قد حددت تحديداً دقيقاً بمعرفة الهيئة التي نوهنا من قبل بذكرها والتي اتمت عملها في سنة ١٩١٢ وسجلت أملاك الاهالي بأسمائهم فقد كانت المعاملة بينهم وبين الحكومة لا تثير نزاعاً من هذه الجهة

على ان هؤلاء الاهالي الذين استأجرت الحكومة اراضيهم يجب ان يكون لهم الى جانب هذا الايجار الذي يبدو تافهاً ضئيلاً متى استغلت الأرض بزراعة القطن مصلحة أخرى تجعلهم لا يتذمرون ولا يشعرون بأن حيفاً وقع عليهم وقد حلت الحكومة والنقابة هذه المسألة بصورة نراها وتحكم على عدالتها بعد ان نصف لك كيف نظم ري الجزيرة .

أصبحت الثلاثمائة الف فدان اذن في حيازة الحكومة التي استأجرتها وهذه الثلاثمائة الف فدان تحاذي ترعة الجزيرة حيناً وتحيط بها حيناً ، وقد قسمت الحكومة والنقابة هذه المساحة الى تسعة عشر قطعة كل منها تبلغ نحو خمسة عشر الف فدان ثم قسمت كل قطعة مساحات مربعة . وتمر الترع الرئيسية الآخذة من ترعة

الجزيرة وبين كل واحدة وما بعدها نحو ١٥ متر ومن هذه الترع تروى الأرض عن طريق فتحات منتظمة أدق نظام

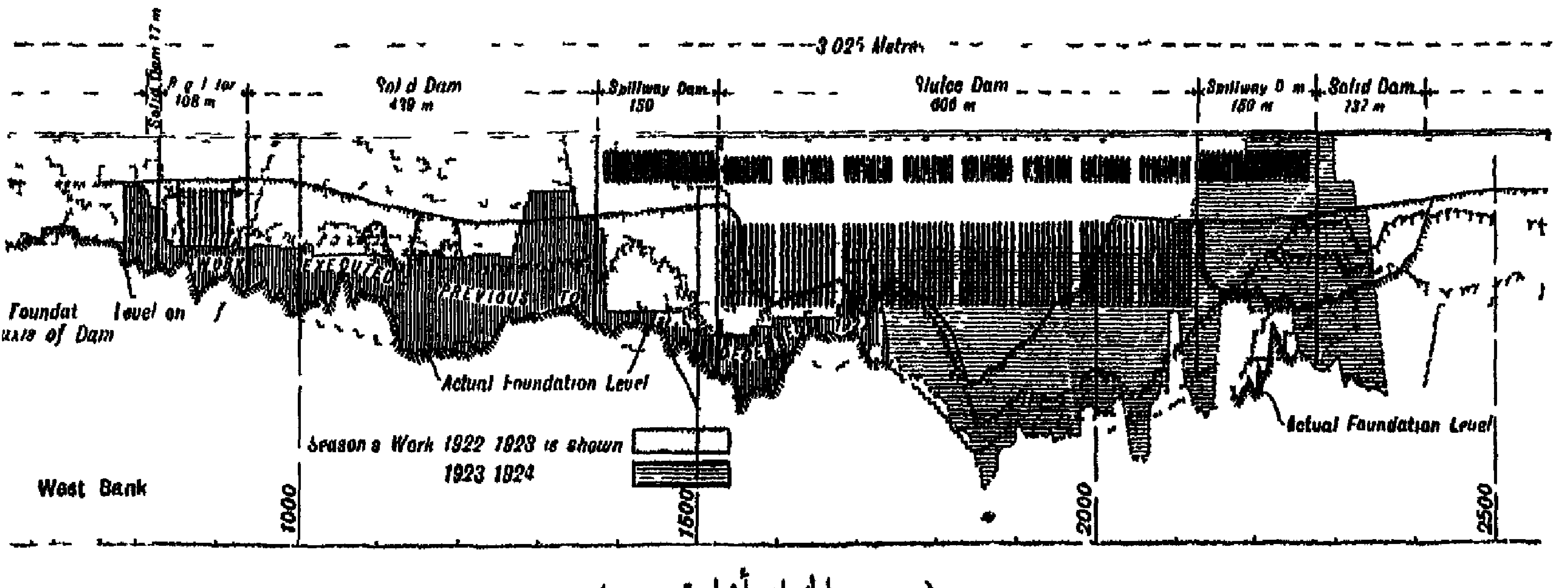
وقد رأت الحكومة ان قدرة المزارع في الاستغلال الصالح لا يمكن ان تعدو العمل في ثلاثين فداناً يزرع منها عشرة أفدنة قطناً وعشرة ذرة ولوبية ويترك العشرة الباقية بغير زراعة لذلك جعلت هذه الثلاثين فداناً وحدة مايضع الرجل عليه يده في أراضي الجزيرة. وملاك الارض الأصليون يفضلون على من سواهم في الاستغلال . فكل مالك يضع يده على ثلاثين فداناً من أرضه ولكي لا يشعر كبار الملاك بأنهم غبنوا في تأجيرهم أراضيهم للحكومة جعلت القاعدة أن يكون للمالك حق اقتراح الأشخاص الذين يستغلون سائر ما استأجرتهُ الحكومة من ملكه وهو غالب الأحيان يقترح من يتصلون به بصلة القربى وما دامت تقارير المفتشين عن هؤلاء المزارعين صالحة فلا محل لاجلائهم عن الارض التي يستغلونها

أشرنا الى أن محطات الطلمبات هي التي قامت بالتجارب الأولى كما قامت بتدريب المزارعين على طرق الاستغلال وأدواتهِ ، والتي استمرت كذلك الى أن تم بناء الخزان في سنة ١٩٢٥ بعد ان بدأت الأعمال الاولى التمهيدية فيه في سنة ١٩١٣ وأشرنا كذلك الى ان هذه الاعمال أوقفت على أثر إعلان الحرب العامة في سنة ١٩١٤.

فلما انتهت الحرب عاد المسيو السمدريبي الذي وكلت الحكومة اليه المشروع يباشر أعمال الانشاء لكن ارتفاع الاسعار على أثر الحرب جعل المبالغ التي قدرت لاتمام البناء غير كافية . على أنهُ استمر في العمل لحساب الحكومة وباشر منه قسماً غير قليل وفي هذه الاثناء رأت حكومة السودان ان خطة الانشاء على هذه الصورة ، صورة الحساب الجاري ، تهبطها بالنفقات فلما قررت الحكومة البريطانية رفع قرض السودان الى ستة ملايين طرح إكمال بناء خزان سنار في المناقصة ورسا على محلات بيرسون وأولاده بلندره فبدأوا العمل فيه منذ ابريل سنة ١٩٢١، وهم الذين قاموا باتمامهِ

وسبقنا الى وصف الخزان حين تم فوقه وذكرنا ان طوله ومعه الحوائط الصماء يبلغ ٣٢٥ متراً مد عليها شريط سكة الحديد استعداداً لانشاء خط مكوار — كسلا وننشر الآن مذكرة فنية عن خزان سنار وضعها الفي بك الذي كان مدير أعمال تفتيش ري مصر بالخرطوم وتكرم بإطلاعنا عليها كما تكرم بايقافنا على ما طلبنا من المعلومات الخاصة بهذا المشروع وبمشروع جبل الأولياء وان كان قد اعتذر عن الافضاء لنا بما رأى أن وظيفته لا تسمح له بالافضاء به

* * *



(صوره الخزان أثناء تشييده)

فتحات السد — معمولة باتساع يسمح بمرور اكبر تصرف للنيل الازرق وزيادة وهو ١٥ متر مكعب في الثانية والفتحات كالآتي —

أولاً — الفتحات السفلى وعددها ٨ وعرض كل واحدة ٢ متر وارتفاع ٤ و٨ ومنسوب العتب ٢ و ٤ ٤ ويعمل عليهـا الموازنة سوابات حديد تفتح بواسطة ونش بحاري

ثانياً — الفتحات العليا وتسمى فتحات التخفيف وهي ٧٢ فوق الفتحات السفلى عرض كل واحدة ٣ متر وارتفاعها ٢ متر وهـذه الفتحات يعمل عليها الموازنة بواسطة أخشاب عماأفقي وترفع بهلب باليد

ثالثاً — يوجد بالجهة الشرقية من الفتحات المبينة عاليه ٢ فتحة عليا ومثلها في الجهة الغربية — وعرض كل فتحة ٥ متر وارتفاعها ٢متر — وعتب عموم الفتحات العليا على منسوب ٢ و ٤١٧ وتفتح وتقفـل بواسطة أخشاب عما أفقي

سعة الخزان وملوه وتفريغه

أولاً — أعلا منسوب تصل اليه المياه أمام الخزان هو ٧ و ٤٢٠ ويخزن على هذا المنسوب ٦٣٦ مليون متر مكعب

ثانياً — في أول يوليو من كل سنة يكون منسوب أمام الخزان على ٥و٤١٤ ويرتفع تدريجياً في مدة خمسة عشر يوماً الى ٢و٤١٧

لاعطاء مياه لري القطن بالجزيرة ونحفظ المياه على هذا المنسوب الى أول نوفمبر .

ثالثاً — من أول نوفمبر الى ديسمبر يرتفع منسوب المياه تدريجياً الى ٧ و ٤٢ ويبقى على هذا المنسوب الى ١٨ يناير.

رابعاً — من ١٨ يناير تأخذ الجزيرة كافة احتياجاتهـا من الماء المخزون أمام والتصرف الذي يكون في النيل الازرق في الروصيرص أي تصرف النهر الطبيعي يمر خلف الخزان كما هو لاحتياجات القطر المصري لغاية أول يوليو حيث يتكرر الترتيب المبين عاليه

ملحوظة — قد اتبع نظام خاص في الحجز على الخزان هـذا العام لعدم أخذ مياه كثيرة في يوليو يمكن أن يحصل منها ضرر للقطر المصري وفي أول ديسمبر من هـذا العام تم حفظ أمام الخزان على الدرجة المطلوبة وهي ٧ و ٤٢

ترعة الجزيرة

أولاً — فم الترعة عبارة عن ١٤ فتحة عرض الواحدة ٣ متر وارتفاع ٥ متر والعتب على منسوب ١ و ٤١١ — من هذه الفتحات سبعة مقفولة بالخرسانة المسلحة،وتعمل الموازنة بواسطة بوابات حديد ترفع بونش يدار بواسطة رجلين

ثانياً — الترعة عرض قاعها ٢٦ متر وارتفاع المياه بها ٤٥و٣ متر

وانحدار ٧ سنتي في الكيلو وذلك كاف لري المساحة الحاليــة وهي ٣٠ فدان ومسطاح الترعة يسمح بتوسيعها عند زيادة الزمام .

ثالثاً — أول قناطر حجر على الترعة عند كيلو ٥٧ ويتفرع أمامها خمسة ترع ومصرف على النيــل لتخفيف المياه بالترعة وبعدها يبدأ الري بالجزيرة وكل الري بالراحة

رابعاً — ثاني قناطر حجر عند كيلو ٧٧ وأمامها ثلاث ترع ومصرف على النيل للتخفيف ثم قناطر حجر أخرى عند كيلو ٩٩ ثم عند كيلو ١٤٤

الارض المقرر زراعتها بالجزيرة

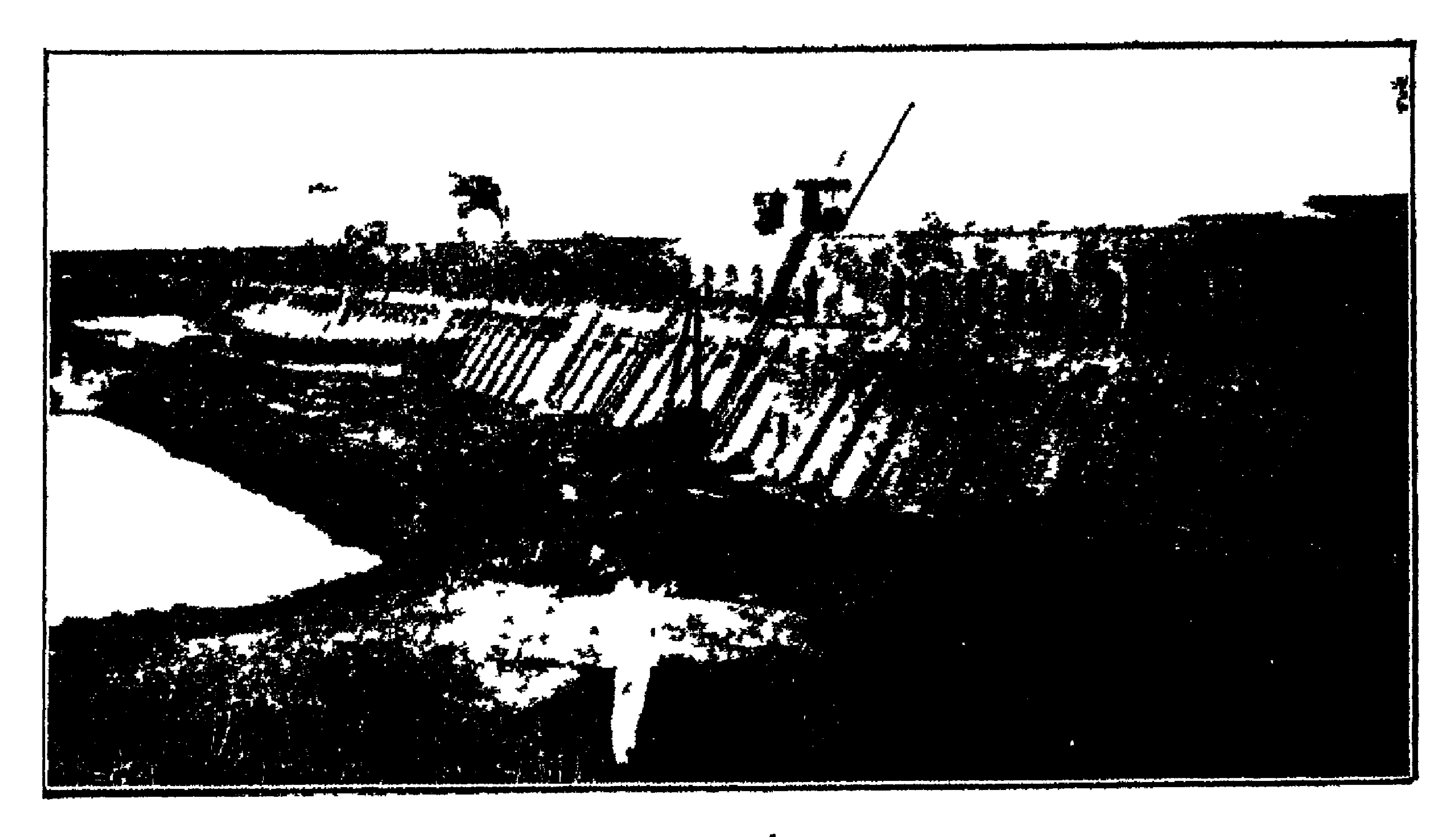
هذا العام تم ري ثمانين الف فدان قطن و ٤٩ فدان ذرة وعشرة آلاف لوبيا والزراعة حالتها حسنة

والمقرر هو ان يزرع مائة الف قطن ومثلها ذرة وبقول ويترك مائة الف فدان بور

السعة فتحات المقفولة بهم الترعة والمسطاح المتروك الترعة يسمحان بزيادة الزمام الى مليون فدان

* * *

وقد طرأ على بعض ما في هذه المذكرة تعديلات فيما يتعلق بالتواريخ التي تبدأ فيها حاجة مصر لتصرف النهر الطبيعي بعرض اليها



(صورة الحزان من أمام حال الاسهاء ان شيلده)

حين الكلام عن مشروعات ضبط النيل كافة . كما ان سعة الخزان بعد ملئه للمرة الاولى تبين انها ٨ مليون متر مكعب والمناسيب المذكورة فيها مذكورة بالمقارنة الى ارتفاع مياه البحر الابيض المتوسط .
أما ما ورد عن مسطاح الترعة وكونه يسمح بتوسيعها عند زيادة الزمام فذلك لأن الخزان يتسع لخزن مياه تكفي زراعة نصف مليون فدان اي ضعف المساحة الحالية الا قليلا والسعة الفتحات المقفلة بالخرسانة من فتحات ترعة الجزيرة يكفي لامداد هذا المقدار بالمياه اللازمة له

ويحسن أن ننبه القارىء كي يسهل عليه إدراك حكمة تواريخ الملء والتفريغ الواردة في هذه المذكرة الى أن زراعة القطن بالسودان تبدأ في أواخر شهر يوليو وأوائل شهر أغسطس فرفع مستوى الماء في الخزان من ٤١٤٫٥ وهو الرقم الموازي لمنسوب الفيضان الطبيعي للنهر الى ٤١٧٫٢ في النصف الثانى من شهر يوليو إنما نقصد به الى تغذية أرض الجزيرة بماء الراحة اللازمة لري الارض وزرعها قطناً ويبقى هذا المنسوب ثابتاً الى شهر نوفمبر حين تخلو مياه النهر من الطمي ويمكن التخزين وفي شهر نوفمبر يرفع منسوب التخزين في سنار الى مستوى ٤٢٠٫٧ ويبقى الى أن تبدأ حاجات مصر للماء لزراعة القطن ولتغذية النهر وإذ كانت أولوية مصر أمراً مقرراً معترفاً به من الجميع فقد وجب البدء في تفريغ الخزان بحيث تأخذ أراضي الجزيرة

كل حاجاتها منه ويبقى تصرف النهر الطبيعي وقفاً على مصر .
والواقع ان حاجة أراضي الجزيرة للماء تقل بعد شهر يناير الذي تبدأ فيه الجنية الاولى من جنيات القطن وتنتهي في شهر مارس فلا تبقى ثمة حاجة لغير مياه الشرب وهذه يكفيها ما مقداره تصرف عشرة أمتار في الثانية

فاذا كان شهر يوليو وابتدأت الحاجة الى المياه في الجزيرة لزراعة القطن وابتدأ الفيضان بحمل رفع الماء في الخزان غير صار بحاجات مصر بدىء في عملية رفع المياه في الخزان من جديد

* * *

لكن مسطح أرض الجزيرة يبلغ ، كما سبق القول، خمسة ملايين من الأفدنة أو يزيد والنية متجهة الى استغلال ثلاثة ملايين منها .
فكيف السبيل الى هذا الاستغلال وخزان سنار لا يكفي ما يحجزه من المياه الا لري نصف مليون واحد؟ أم ان مشروع الجزيرة ما يزال واقفاً في ذهن أصحابه عند ري هذا النصف المليون الواحد من الافدنة ؟

لا هذا ولا ذاك والفكرة الانكليزية متجهة كل الاتجاه الى الى ري ثلاثة ملايين من أفدنة الجزيرة واستغلالها لزراعة القطن الطويل التيلة والوسيلة الى ذلك في نظرهم ليست تعلية خزان سنار ولكن إقامة حجز على بحيرة تسانا في حال الحبشة لحجز ما ينزل في

هذه البحيرة من الأمطار مما يحدر أثناء الفيضان مع مياهها في النيل الازرق و يذهب ضياعاً في البحر الأبيض المتوسط . واذا كان خزان سنار الذي يتسع لخزن ٨ مليوناً من الأمتار المكعبة يكفي لري نصف مليون من الأفدنة فمن الممكن خزن ثلاثة مليارات ونصف مليار على بحيرة تسانا ولهذه الغاية تجري مفاوضات مستمرة بين حكومة بريطانيا وحكومة الحبشة

والظاهر ان هــذه الفكرة ، فكرة الخزن عند تسانا ، لم تكن متمكنة من نفوس الفنيين الذين بدأوا مشروع ري الجزيرة في سنـة ١٩٠٤ وفي سنة ١٩١٢ . فقـد روى لي أحد كبار الفنيين من رجال الري ان حكومة الحبشة عرضت قبل الحرب أن يدفع لها ربع مليون من الجنيهـات اذا أرادت مصر أو السودان إقامة خزن على تسانا ، فرفضت الحـكومتان المصرية والبريطانية هذا العرض أما اليوم فحـكومة الحبشة تطلب هــذا المبلغ جزية سنوية مقابل انتفاع من يريد الانتفاع بأراضي هذه البحيرة

وقد يتساءل بعضهم كيف تنحدر المياه التي تسقط في فصـــل الامطار في بحيرة تسانا مع أن هذه البحيرة هي التي تغذي النيل الازرق أثناء الفيضان . وماء النيل الازرق في هــذه الفترة مشبع بالطمي فيجب أن تكون ميــاه تسانا مشبعة بالطمي كذلك فاذا حجزت رسب الطمي في قاعها فارتفع هــذا القاع و بلغ من ارتفاعه

على تطاول السنين أن تطمى كلها وهذا تساؤل من لا يعرف مصدر الطمي وطبيعة أراضي البحيرة المذكورة وهي صحرية واقعة في مرتفع جبلي ومياه الامطار التي تنزل اليها تنزل اكثر صفاء من مياه النيل في أي وقت من أوقات السنة . فأما الطمي فيتكون من اختلاط مياه الامطار بسفوح جبال الحبشة ومن انحدار الماء المشبع بتراب هذه السفوح الى مجرى النيل الازرق بعد خروجه من بحيرة تسانا لذلك كان حجز هذه المياه في هذه البحيرة منذ نزول الأمطار فيها صالحاً من الجهة الفنية غاية الصلاح وكانت خزاناً طبيعياً بديعاً لري سهل الجزيرة ولترك ما يفيض من الماء ينحدر الى مصر

على أن الحكومة البريطانية تباطأت في مفاوضاتها مع الحبشة بهذا الشأن بعد ما بدا لمشروع الجزيرة وجه من الصعوبة لا يتعلق بالري ولكن يتعلق بالآفات التي أصابت زراعة القطن فيها فقد كانت نتيجة زراعة القطن في أول أمره تفوق كل تصور ، إذ أنتج الفدان من السكلاريدس اكثر من خمسة قناطير ونصف قنطار لكن أمراضاً غير معروفة في مصر وما تزال أسبابها الحقيقية غامضة سرعان ما أصابت النبات فأضعفت من متوسط محصول الفدان إضعافاً جعل حكومة السودان والحكومة البريطانية تفكران في الامر تفكيراً جدياً. وبنظرة في هذا الاحصاء الرسمي عن حاصل الفدان في الاماكن المختلفة والسنين المختلفة تقنع القارىء بأن الأمر يستحق التفكير بالفعل .—

السنة	الطيبة	بركات	الحوش	وادي النو
١٩١١ — ١٢	٣٢و٥	—	—	—
١٩١٢ — ١٣	٦٢و٥	—	—	—
١٩١٣ — ١٤	٨٠و٣	—	—	—
١٩١٤ — ١٥	١٠و٣	٣٩و٥	—	—
١٩١٥ — ١٦	١٠و٣	٤٨و٣	—	—
١٩١٦ — ١٧	٤٧و٣	٢٠و٣	—	—
١٩١٧ — ١٨	١٠و٤	٦٦و٢	—	—
١٩١٨ — ١٩	١٣و٤	٥٠و٣	—	—
١٩١٩ — ٢٠	٦٠و٥	٩٨و٤	—	—
١٩٢٠ — ٢١	٢٠و٣	٥٠و٣	—	—
١٩٢١ — ٢٢	٤٦و٣	٨٤و٣	٣٢و٤	—
١٩٢٣ — ٢٤	٩٠و٤	٠٠و٤	٤٠و٣	—
١٩٢٣ - ٢٤	٥٤و٢	٨٧و٢	٨٨و٢	٨٨و٢
١٩٢٤ — ٢٥	٣٣٨و٢	٢٨٨و٢	٣٩٠و٢	٠٤٦و٢

هذا الاحصاء صريح في الدلالة على خطر الحالة وتطلبها العناية والبحث . لذلك قامت الجمعية الامبراطورية لزراعة القطن بالاشتراك مع نقابة زراعة السودان ومع حكومة السودان بوضع برنامج شامل

للمباحث التي يجب أن تعمل لفحص أسباب هذه الامراض ووسائل علاجها وتكونت بلندرة هيئة استشارية مثلت فيها هــذه الجهات الثلاث ،وظيفتها فحص التقارير الزراعيــة الخاصة بمشروع الجزيرة واسداء النصيحة فيما يجب القيام به من المبــاحث في العام الذى يلي هذه التقارير

أما مزرعة مباحث الجزيرة الـكائنــة على مقربة من واد مدني والممتدة على مساحة قدرها ثلاثمائة وخمسون فدانًا فقــد أمدت بما يجب لبحث المسائل التي تمس زراعة الجزيرة فأقيمت المعــامل ليعمل فيها علماء النظر فيما يقتضيه البحث الكيمائي والنباتي ولاجراء التجارب الخاصــة بانتقاء بذرة القطن التي يمكن أن تصلح في أراضي الجزيرة من غير أن تصاب بما أصيبت البذرة القديمة به من الآفات .

وأكبر ظن الفنيين في الوقت الحاضر أن هذه الآفات التي تفشت في زراعة القطن سببها رطوبة الأرض بعد ريها ريًا ضافيًا ، وأن هذه الرطوبة لم يقف أثرها عندتوليد جراثيم لا تصيب الا ظاهر شجرة القطن بل تولدت عنها جراثيم امتدت الى بذور القطن نفسه . على أن هذا ما يزال في حيز الظن الى أن تجلو المباحث العلمية الحقيقة

غير أن تباطؤ الحـكومة البريطانية في المفاوضات الخاصة بمشروع تسانا لم يثنها عن مطالبة الحكومة المصرية بزيادة الثلاثمائة الف فدان

التي تزرع الآن في الجزيرة الى اربعمائة وخمسين الفاً وقد بحث هذا الطلب بعد صدور الانذار البريطاني لمصر على أثر مقتل سير لي ستاك باشا فى القاهرة مما سنفصله في الفصل القادم ونحسب الحكومة المصرية لا ترى من إجابة هذا الطلب مانعاً

خزان سنار ومشروع الجزيرة هما إذن حلقتان من سلسلة حلقات مشروعات الري الكبرى فما هي هذه المشروعات ؟ والى اي حد وصلت ؟ وما وجه الحق ثم ما وجه الخطأ فيها ؟ ذلك ما نعرض له بالبحث الآن

يوم في جبل الاولياء
مشروعات الري الكبرى

كانت زيارة جبل الأولياء ومشاهدة ما تم هناك من الأعمال لانشاء قنطرة الخزان التى أريد تشييدها لفائدة الري في مصر خاصة ، من أول ماعنيت به منذ نزلت الخرطوم ذلك بأن الحكومة المصرية كانت قررت هذا المشروع، وبأن الاعمال كانت سائرة فيه على مهل حقاً ، ولكنها كانت مستمرة في انتظار طرحه للمناقصة العامة وتولى أحد البيوتات الهندسية الكبرى إقامتـــه . ولم يقم أحد باعتراض جدي على هذه الأعمال واستمرارها منذ انتهت اللجنة الدوليـــة التى بحثت الخلاف الذي كان حاصلاً بشأن مقاييس مشروعات ضبط النيل بين السير وليم ولــككس والمستر كنيدي من ناحية والسير مردخ ماكدونالد من الناحية الاخرى فمن يوم حكمت هذه اللجنة بصحة نظرية السير ماكدونالد وأبطلت ماتمسك به خصماه في شأن المقاييس التى أقام هو عليهـــا حسابه وفي شأن توزيع المياه من طريق قناطر الخزان بين مصر والسودان توزيعاً لا يضر أولوية مصر التاريخية — من ذلك اليوم استمرت الاعمال في مكوار الى ان تمت إقامة خزان سنار ، وأرادت الحكومة المصرية الاستمرار في تشييد خزان جبل

الاولياء لولا أن الاموال التى قدرت من قبل الحرب لاقامة هذا الخزان وقدرها مليون من الجنيهات لم تصبح كافية بسبب الغلاء الذي عقب الحرب ، وان الحكومات المصرية التى كانت تتوالى في ذلك الحين كانت في وضع سياسي غير منتظم لم يمكنها من تقرير الاعتمادات اللازمة لانشاء خزان جبل الاولياء فلما توالت الحكومات بعد إعلان مصر استقلالها لم تستطع إحداها الفصل في الموضوع الى ان تولى معالي اسماعيل باشا سري وزارة الأشغال منذ أواخر سنة ١٩٢٤ الى شهر مايو سنة ١٩٢٦ وإذ كان معاليه ممن عملوا في تقرير مشروعات الري ومن بينها جبل الاولياء فقد قررت الحكومة التى كان فيها الاعتمادات اللازمة للسير في العمل

والى ذلك الحين لم تكن فكرة إهمال خزان جبل الاولياء وتعلية خزان اسوان الحالى تعلية ثانية قد وجدت أنصاراً في الحكم ولا كانت قد وجدت أنصاراً أقوياء خارج الحكم لذلك كان طبيعياً أن أبغي زيارة جبل الاولياء وأرى سير الاعمال فيه وكان ظني أن أتمكن من الذهاب اليه صبيحة يوم الثلاثاء ١٩ يناير إذ كان برنامج حفلة افتتاح خزان سنار خالياً يومئذ لكن اشتغال مواطنينا القائمين بأمر جبل الاولياء باستقبال سري باشا وزير الاشغال لم يجعل اجابة طلبي هذا ميسورة فقضيت الثلاثاء بأم درمان وانتظرت الى يوم السبت الذي يلي وصولنا الى الخرطوم بعد حفلة سنار ،وفي هذا اليوم

أعددت عدتي للذهاب مع معنش ري جبل أولياء محمد بك صبري شهيب الذي تفضل بدعوتي كي أصحبه في سيارته .

تقع قرية جبل الاولياء على بعد خمسة وأربعين كيلو متراً الى جنوب الخرطوم على النيل الابيض . وقد اختيرت بعد ان أثبت جس قاع النهر ان القاع صخري عندها فلا يحتاج الى نفقات جسيمة يجب انفاقها للوصول الى طبقة صخرية بعيدة عن القاع بعداً كبيراً . وكانت قد دارت بخاطر السير وليم ولككس حوالي سنة ٩ ١٩ فكرة انشاء قنطرة الحجر على النهر بين الخرطوم وأم درمان لتغني في الوقت نفسهُ عن إقامة جسر بين عاصمتي السودان [١] . لكن هذه الفكرة أهملت لما كان يترتب على الحجر من اتساع مسطح المياه اتساعاً يضر البلدين جميعاً ضرراً جسيماً

كنت أود لو استطعت بدل الذهاب في السيارة ان أركب السفينة التي يسافر فيها المهندسون من الخرطوم الى جبل الاولياء . لكن قيامها في منتصف الساعة السادسة صباحاً وخشيتي عدم التبكير في اليقظة عدلا بي عن هذا الميل فلما استيقظت في الصباح الفيت الوقت مبكراً مما جعلني أود لو وجدت الوسيلة لاخطار مواطنينا المسافرين على ظهر النهر . وزاد هذا الميل عندي ما كان من صحو السماء ودفء الجو وتغريد العصافير فوق أشجار الفندق . لكني بعد

(١) كذلك سمعت من معالي سري باشا

قليل من التفكير وأنا ما أزال في سريري ممتعاً بما حولي من دواعي الكسل عدت ففضلت أن أتناول إفطاري على مهل في انتظار مجيء السيارة الساعة السابعة والنصف وقبيل هذا الموعد كنت قد أتممت عدتي وغادرت الغرفة الى شرفة الفندق حيث انتظرت الى حين حلوله . ولم يحضر صبري بك فنزلت الى الشارع الفخم المحادي للنيل الازرق أسير فيه ذهاباً وجيئة ووصلت من مسيرتي الى حديقة الحيوانات فدخلت اليها وطفت أرجاءها وتمتعت في هذا الوقت الظريف الرقيق هواؤه الهادئة شمسه بمناظر الغزال والنعام وما تزال هي الأخرى ناعمة بيقظة النهار وانطواء بساط الليل وإذ كانت الحديقة لا تبلغ ركناً من أركان حديقة القاهرة فقد خرجت منها بعد ربع ساعة ويممت الفندق من جديد وإذ وصلت الى بابه كان صبري بك قد دخل يسأل عني فتبادلنا التحية وركبنا السيارة التي اخترقت بنا شوارع الخرطوم وتخطت الى فضاء كأنه الصحراء

نعم كأنه الصحراء! فهو ليس صحراء كالتي قطعها القطار بين حلفا وابي حمد والتي لا تعرف من صور الحياة غير « التكلات » المقطعة عند المحطات من نمرة ١ الى نمرة ١٠ ، لكنه مع ذلك رمال فسيحة ممتدة يقدم عليها الحين بعد الحين « ديم » به بعض تكلات تشهد أن الحياة به غير منقطعة كل الانقطاع وتعطيها شجيرات يدعونها « العشار » أشبه شيء في اقعائها على الارض وفي قتام لون ورقها وفي

صمتها الموحش لا يحييه طير ولا حشرة تلك الشجيرات التي تقوم الى جانب كثير من مقابر الارياف وفوق هذه الرمال وبين تلك الشجيرات ظلت السيارات في انطلاقها مسرعة وظللنا لا نرى إنساناً مدى ساعة ونصف الساعة وحتى هذه «التكلات» القائمة في بعض « الديم » والمبنية من الطين لم يقم حولها رجل ولا امرأة . ثم بلغنا قرية جبل الاولياء وهي أقرب للكفور والعزب منها لقرى الريف بل أقرب للكفور والعزب الصغيرة منها الى العزب الكبيرة ومن قبل أن نمر بهذه القرية تبدى أمامنا جبل قليل الارتفاع هو الذي سميت باسمه القرية وهو جبل قاحل من حجر جيري كسته الشمس المحرقة لوناً كالحاً

وتقدمنا نحو مستعمرة الخزان التي أقامتها الحكومة المصرية للمهندسين والعمال الذين سيقومون بالتشييد ومراقبته وفي هذه المستعمرة منازل عدة ومنها مستشفى وقد زرعت فيها بعض الاشجار وسرنا بين هذه المباني التي أقيمت من حجر الجبل الى ان وصلنا مقر تفتيش جبل الاولياء ولعلك إن أردت أن تستوضح منه صورة موفق الى ذلك اذا كنت قد رأيت بعض دواوين الهندسة في مراكز مصر أو بعضاً من مباني المحاكم الجزئية في هذه المراكز

دخلنا التفتيش وجاء الموظفون فاذا بي في وسط مصري خالص واذا أحد هؤلاء الموظفين كاتب كثيراً ما ظهر اسمه على صفحات

الجرائد المصرية على مقالات في التفكير والاجتماع ، ثم رأى حمل الاولياء ووزارة الأشغال اكثر فائدة وجدوى من صناعة القلم وجعل عصري ملك يسطر في أوراق التفتيش رسماً ولما أردت أن أقف على بعض معلومات خاصة بالخزان ذهب الى غرفة مجاورة ثم عاد يخبرني أن المهندس المقيم مستر تيبر (The Resident Engineer Mr Tabor) يفضل أن نزور المباني التي تجاور الخزان وأن نشهد مكان الخزان وأن نرى الاستعداد للتشييد وما حوى هذا الاستعداد من تجارب هندسية كي أتمكن بعد ذلك من أن أطرح عليه ماأريد سؤاله عنه

وسرنا صوب النهر الى حيث تقرر بناء قنطرة الحجر مارين في طريقنا بسكك حديد ضيقة (ترولى) لنقل الاحجار والعمال، ثم انعطفنا فتسلقنا الى حيث كان يقام بناء حديد للتفتيش يشرف على النهر ويمكن للمقيم به أن يرى العمل اثناء سيره وأن يراقبه مراقبة دقيقة ، ولذلك سمي هذا البناء منزل الخزان ومن عند هذا البناء تسلقنا من حديد قمة وضع فوقها حجر هو حجر المحور كما يسمونه ومنه يرى الانسان على شاطىء النهر حجرين على خط مستقيم معه هما موضع بداية البناء عند كل شاطىء وعلى حجر المحور هذا اعتاد الزائرون أن يكتبوا اسماءهم وعليه كتبت اسمي أنا أيضاً مثلما يكتبون

وانحدرنا من عنـــد حجر المحور الى بناء التفتيش الحديد والى شاطىء النهر ونحن نتحدث عن هذا الخزان وبنائه ، فلما كنا عنـــد





(مستعمرة جبل الاولياء)

الشاطىء لفت نظري حوض كبير في الارض بني من أحجار الجبل فسألت عما هو فاذا السير موريس فتزموريس المهندس الانكليزي العظيم في شؤون العمارة كان قد استدعى الى هذه المنطقة ليبدي رأيه من الوجهة الفنية فيما اذا كانت احجار جبل الاولياء صالحة لاقامة

قناطر الحجر منها أو ان صروريا حلب احجار الحرابيت من ناحية مكوار أو ناحية أحرى أقرب منها . وقد بي هذا الحوض من حجر حبل الاولياء وملىء بالماء لمعرفة تأثير الماء فيـه ولتقدير قوة مقاومة القناطر التى تبنى منه ومع أن هذا الحجر ثبتت قوته فقد ابدى الخبير الفني رأيه بأنه يفضل أن يبني القناطر من حرابيت وجد على مسافة أربعين كيلومترا من حبل الاولياء ويقتضي نقله نفقات غير قليلة لكن النفقات يجب أن لا يقام لها حساب كبير عند اقامة أعمال هندسية لها صفة الدوام كقناطر الحجر المعدة لحزن مليارات الامتار المكعبة من المياه ذات الضغط الشديد

واستدرنا عند هذا الحوض الى ناحية صهريج ماء مرتفع واقع عند شاطىء النهر اعد لتغذية بعض اعمال البناء والهندسة القائمة هنالك والى جانب هذا الصهريج امتد في وسط النهر جسر ضيق لا يتسع لا كثر من شخص واحد يسير عليـه ويصل بين الشاطىء وورشة عوامة سمعنا منها اصوات المطارق التي كانت تعمل لاتمام معدات الباخرة كسلا الواقفة الى جانبها فوقفت بعـد خطوات من الجسر هنيهة واجلت النظر فيما حولي أين أنا الآن ؟ هذا هو النيل امامي اراه كما أراه في دمياط وفي المنصورة وفي القاهرة وفي اسيوط وفي اسوان وهذه شمس الشتاء الدافئة فوقي تنبعث من خلال السماء الصافية البديعة الصفاء اشعتها المحسنة التى تتعاون مع الماء لبعث الحياة

في انحاء الوجود . وهذه هي الباخرة كسلا يقوم بالعمل لاعدادها جماعة من اخواني المصريين . وهذه الاراضي المتسعة حولي اشبه في طبيعتها السهلة رغم قيام جبل الاولياء فيها بطبيعة الوادي من مصر الى حلفا والى الخرطوم تقوم فوق اراضيه المنبسطة جبال لا تزيد على جبل الاولياء ارتفاعاً وهاهم السودانيون الذين حلفت بالخرطوم يتكلمون باللغة التي اتكلم بها ويدينون مثلي بالاسلام ويتصلون كما اتصل بماض مجيد يعرف الفراعنة ويعرف الرومان ويعرف العرب . الست اذن في بيئتي الطبيعية ؟ اليس هذا الصمت المحيط بي يوحي الي من العواطف والمعاني بما يوحي بهِ صمت ارياف مصر أوليس ذلك حجة على أن النيل المحسن أب لكل من اقام على ضفافه الفياضة بالخصب والخير والبركة ، فكل من اقاموا على هذه الضفاف إخوان يجب أن يعملوا احرارا بخيرات أبيهم العظيم

وسرنا فوق الجسر الى الورشة العوامة وارتقينا فوق سطح الباخرة كسلا وكسلا احدى بواخر وزارة الاشغال التي تقل المهندسين ومفتشي الري المصريين ما بين الخرطوم والملاكال وأعالي النيل الابيض وكانت في هذا الحوض تجدد عرفها وسطوحها وتعد لراحة المسافرين عليها راحة كاملة والشيء الذي تمتاز به هذه البواخر الصغيرة التي تسير في اعالي النيل غرفة كبيرة من السلك يقيم بها المسافرون لتقيهم فعل ناموس الملاريا بهم . والمسافرون يلجأون في الشتاء الى

هذه الغرفة نهارهم ويأوون الى الغرف العادية ساعات الليل أما في الصيف فالغرف العادية لا تحتمل ليلا ولا نهاراً عند ذلك تصبح غرفة السلك هذه هي المأوى وهي الملجأ اليوم كله

وعدنا من حيث أتينا وغادرنا وراءنا كسلا والورشة العوامة وصهريج الماء والحوض الذي بني من الحجر وارتقينا الشاطيء حتى وصلنا الى ورشة كبيرة سورت بحوائط من الصاج وقام بالعمل على وابوراتها جماعة من المصريين . وهذه الورشة مستعدة لكل ما يحتاج الأمر اليه في أعمال التشييد والبناء

ورجعنا الى تفتيش الري وقابلت مستر تيبر المهندس المقيم الذي أبدى لي ، بعد تبادل التحية ، تمام استعداده لاجابتي عن كل ما أريد أن أسأل عنه من شؤون الخزان الفنية قال « أما الاعتبارات السياسية فليست من شأني ولذلك لا جواب لها عندي »

وقبل أن نبدأ الحديث أطلعني على خريطة الخزان الذي يمتد — بعد تمام بنائه — من جبل الأولياء الى الدويم ولما كانت هذه المنطقة تبدو للنظر رملية وكان تسرب المياه أثناء الرمال مما يسهل تصوره كان أول ما سألت المهندس المقيم عنه اذا لم يكن الخزان في هذه المنطقة من وادي النيل مضيعاً لكميات كبيرة من المياه خصوصاً وأن ارتفاعها في النهر مدة التخزين يجعل ضغطها على الرمال أكبر . ومن شأن ذلك أن يزيد كمية المتسرب خلال الرمال؟

فكان جوابه

«لقد وردمثل هذا الخاطر بعض الذين فحصوا هذه الارض قبل البت بناء الخزان عليها ، فقاموا باجراء تجارب اقنعتهم بأن الارض صماء لاتتسرب المياه خلالها اكثرمما تتسرب خلال أية منطقة جبلية وما نزال نحن مواليين اجراء مثل هذه التجارب . وكل ما تقوم به منها يزيدنا اقتناعاً بصلاح المنطقة للخزن من هذه التجارب انا حفرنا آبارا كثيرة على شاطىء النهر ما بين جبل الأولياء والدويم وتركنا هذه الآبار أزمانا طويلة وقد لوحظ أن هذه الآبار لا تتأثر بالفيضان ولا بالتحاريق . فارتفاع المــاء فيها وغيضانه منها لا علاقة له البتة بارتفاع النيل وانخفاضه وهذا دليل على أن تسرب الماء في هذه الارض ليس يسيراً كما قد يبدو للنظرة الأولى وزادنا اقتناعاً بصلابة الارض وعدم قابليتها للتسرب أن المياه في هذه الآبار لم تكن ترتفع وتنخفض وتغيض بنسبة واحدة ولا في أوقات واحدة فمن هذه الآبار ما كان يرتفع ماؤه اكثر من غيره ومنها ما كان يغيض فيه الماء بينا ما يزال غيره يرتفع الماء فيه وفضلا عن ذلك كله فان ارتفاع المياه في هذه الآبار لم يصل يوماً من الأيام الى محاذاة ماء النهر ولم يزد يوماً على ان كان ماء نشع كما يرى في أية منطقة غير منطقة جبل الأولياء ، وكما يرى في بعض المناطق الجبلية الصخرية

«هذه واحدة من التجارب وتجربة أخرى انا وضعنا اسطوانة

نحاسية ارتفاعها خمسة أمتار عمودية على هذه الرمال وملأناها بالماء . وتركناها أياما طويلة فلم ينقص الماء فيها أي نقص مما يدل على أن الرمال لم تتشرب منه شيئاً .

« وأكثر من خمسين تجربة من هذا النوع أجريناها وكلها دلت على أن أرض هذه المنطقة صماء وان التخزين بها لا يخشى معه من تسرب الماء خلال الأرض ولا من تشرب الارض للماء . فاذا لوحظ الى جانب ذلك كله أن مقدرة الأرض على التشرب تنتهي كما تنتهي مقدرة الماء على اذابة اي مادة قابلة للذوبان — كالسكر وكالملح — تلقى فيه، وان فيضان النيل في هذه المناطق يرجع الى آلاف السنين لم يبق أمامنا موضع للريبة في أن نظرية التسرب نظرية لا أساس لها »

لم أجد ما اعترض به على هذه الأقوال ولاحظ ذلك مستر تيمر . فانتقل من مسألة التسرب الى الحديث عن خزان الاولياء ووظيفته الحقيقية فقال

« تعلم ان مصر بحاجة الى أربعة عشر ملياراً من الامتار المكعبة من الماء لامكان ري كلما يمكن ريه من أراضيها القابلة للزراعة وخزان اسوان الحالي لا يخزن أكثر من مليارين ونصف مليار . وخزان جبل الاولياء لن يقوم بخزن كمية أكثر مما يخزن خزان اصوان ولا سبيل الى الحصول على التسعة المليارات الباقية لسداد حاجات مصر المائية في مستقبل غير بعيد الا التخزين على البحيرات

الاستوائية التي ينبع منها النيل الابيض وهذه هي مشروعات الري الكبرى التي يفكر فيها منذ زمان طويل — من أيام كان السير ويليام جارستن مستشاراً لوزارة الاشغال المصرية والمياه المخزونة في المناطق الاستوائية لا تصل الى مصر قبل ثلاثة أشهر أو ثلاثة أشهر ونصف فلا مفر والحالة هذه من وجود حوض متوسط تحجز عنده كميات من المياه كافية للحاجات العاجلة ويمكن ان تصل الى مصر في اسبوعين أو ثلاثة أسابيع ذلك بأنه اذا طلبت اصوان الماء اللازم لمصر من بحيرة البرت التي سيكون عليها الخزان العام فمن الواجب أن يطلب هذا الماء للحاجات التي تنتظر في مصر بعد ثلاثة أشهر او اربعة وقد يكون من الصعب التنبؤ بما سيكون من هذه الحاجات ففي اثناء ثلاثة اشهر أو أربعة قد ينزل من الامطار في مناطق الحبشة أو في مناطق اخرى ما يغني مصر عن هذه المياه وفي هذه الحالة — حالة ما اذا لم يكن هناك حوض متوسط وكانت المياه تسيل من البرت لاصوان مباشرة — يضطر رجال الري الى ترك هذه المياه تمر للبحر الأبيض المتوسط وتضيع فيه والغاية من اقامة قناطر الخزان انما هي التفادي من ترك الماء يضيع واستبقائه للانتفاع به عند الحاجة وأما مع وجود خزان جبل الاولياء ، ومثله كلما سمحت مصر المياه التي به ، والخزان بعد أن يمتليء على بحيرة البرت فثمما يكمل عدم طلب مصر الا ما تتوقعه من حاجاتها الى الماء بعد الاسبوعين أو الثلاثة

الاسابيع الكافية لمسيرة الماء من جبل الاولياء الى اصوان وتعرف حاجات البلاد المائية بعد خمسة عشر يوماً أيسر كثيراً من تعرفها بعد ثلاثة أشهر أو أربعة فمرص ضياع الماء في البحر الابيض المتوسط تكون في هذه الحالة أقل بكثير وهذه هي الوظيفة الحقيقية الدائمة لخزان جبل الاولياء هو حوض منظم اكثر منه خزاناً لكنه سيكون خزاناً الى أن يتم تعديل مجرى النيل في منطقة السدود وإقامة الحجر على بحيرة البرت .

وطال الحديث بنا في هذه الشؤون ثم شكرت المستر تيبر وخرجت وأصحابنا المهندسين المصريين الى حيث تناولنا طعام الغداء في دار أحدهم بجبل الاولياء وتركنا هذه المستعمرة المصرية التي لا تظهر أمام العين اكثر من مستعمرة صغيرة تكفي خمسون الفاً أو مائة الف من الجنيهات لانشائها والتي يقال مع ذلك انها استغرقت ثمانمائة الف من الجنيهات ، تركناها عائدين الى الخرطوم حيث وصلناها ساعة آذنت الشمس بالمغيب

* * *

آويت الى الفندق ورأسي مشغول بمشروعات الري الكبرى ، هذه المشروعات التي لم تشغل بال المصريين مثلما شغلته منذ سنة ١٩٢٠ حين كانت حركة مصر الاستقلالية على أشدها وحين داخل الناس الروع على مصيرهم اذا ظلت مفاتيح النيل في يد غير يد

مصر فلقد علت الصيحة يومئذ بأن مصر كانت منذ الأزل متمتعة وحدها بمياه النيل وبطميه المخصب ، فمن الغبن ومن الاعتداء على الحقوق حجز هذا الماء أو بعضه عنها لزراعة القطن أو غير القطن في السودان ، ومن الغبن وضع تصرف النيل الذي كان دائماً بيد المصريين في أيد اخرى تستطيع ان تتخذ من ذلك وسيلة لتهديد مصر في حياتها وعيشها لسبب ولغير سبب لكن هذه الصيحة كانت متأخرة من ناحية ، وكانت متهمة بالغرض الذاتي من ناحية اخرى، وكانت سياسة سيئة كذلك

ومع أن المصريين جميعاً اشتركوا فيها اندفاعاً وراء المهندسين الذين قاموا بها وفي مقدمتهم السير ويلم ولككس والمستر كندي الانكليزيين فاني اشعر اليوم شعوراً عميقاً بأنها لم تكن صيحة موفقة بحال من الأحوال كانت متأخرة لأن مشروعات الري التي قامت الصيحة ضدها لم تكن بنت الحرب بل الحرب كانت عطلتها ولم يبدأ بحثها وتصميمها قبل الحرب مباشرة بل بحثت ووضع تصميمها وقررت المبالغ اللازمة لانشائها قبل الحرب بسنوات مع ذلك لم يعترض عليها أحد ولم ينكر أحد ما أفادت مصر من انشاء خزان القناطر الخيرية ومن انشاء خزان أسوان وتعليته كما لم ينكر أحد حاجة مصر للماء اذا أريد التوسع في ري المساحات القابلة للزراعة فيها .

فالمبدأ من حيث هو تقرر قبل الحرب بنحو خمس عشرة سنة . وطريقة السعيد وضعت في سنة ٩ ١٩ وبدأت أعمالها التمهيدية في سنة ١٩١٣ وكان هؤلاء المهندسون الذين أقاموا الضجة في مصر يشغلون وظائف هندسية كبيرة ومع ذلك ظلوا جميعاً لا يرفع أحد منهم صوتاً وكانت هذه الصيحة متهمة بالغرض الذاتي لأن سير ولكككس ومستر كندي لم يعترضا كما تقدم الا حين نشاط الحركة الاستقلالية المصرية ، وبعدما استقل السير مردخ مكدونالد بالاشراف في انكلترا على مشروع الجزيرة من غير أن يشتركا واياه فيه مع ما كان لهما من المقام في الاعمال الهندسية بمصر والسودان . وكانت الصيحة سياسة سيئة لأنها اتخذت حجة عند السودانيين بأن المصريين يريدون الاستئثار بخيرات النيل وحدهم مع ما يعلنون من أنهم يعتبرون السودان ومصر قطراً واحداً ويفضلون أن تهدر مياه النيل في البحر الأبيض المتوسط على أن ينتفع بها غيرهم، ولو كان هذا الانتفاع غير ضار بالمصريين أنفسهم، اذا قام المصريون وقام السودانيون ببناء القناطر اللازمة التي تحجز الماء للانتفاع به بدل تركه يسيل الى البحر الأبيض المتوسط

أشعر اليوم شعوراً عميقاً بأن هذه الصيحة لم تكن موفقة صحيح أن أولوية مصر في الانتفاع بمياه النيل أولوية تاريخية ثابتة لا سبيل الى انكارها . لكنها لا تؤدي الى اكثر من حق مصر في استيفاء

حاجاتها من ماء النيل قبل غيرها وما دامت المياه التي تفيض من النيلين الازرق والأبيض يمكن حجزها والانتفاع بها لتوسع مصر الزراعي ولزراعة السودان والبلاد الواقعة على شواطىء النيل فمن الجريمة في حق مصر وفي حق هذه البلاد المجاورة لها والمتصلة بها ، وفي حق العلم وفي حق الانسانية ، أن لا تضبط هذه المياه أدق الضبط وأن لا تستفيد منها مصر والسودان وغير السودان الفائدة التي تجعل أراضيها تنتج أغزر نتيجة ممكنة والتي تفيد الصناعة وغير الصناعة من القوى الكمية في انحدار مياه النيل مما تستطيع الوسائل العلمية استخلاصه منها .

ومياه النيل اذا ضبطت ليست كافية لري القابل للزراعة من أرض مصر والسودان وغير السودان فحسب ، بل لتجعل من كثير من الأراضي الأخرى الصحراوية واحات وجنات وما دام العلم قد سخر للناس قوى الطبيعة فمن الجهل ومن السخافة أن لا يستغلوا كل ما يستطيعون استغلاله من هذه القوى

ولست أريد في سبيل التدليل على هذا ان أصل والقارىء في بيداء الارقام والمكعبات فلست مهندساً واكثر القراء ليسوا مهندسين ويكفيني أن أذكر ان حاجات مصر الحالية للماء المخزون تعادل مليارين ونصف مليار من الامتار المكعبة وحاجة السودان الحالية تعادل ٨٠٠ مليون متر مكعب من الماء المخزون كذلك أما مياه

الفيضان فلا حساب لها لأنها تريد أضعافاً مضاعفة عن حاجات مصر والسودان أثناء الفيضان . فاذا كان ممكناً أن يحجز فضلاً عن ذلك ثلاثة مليارات ونصف في بحيرة تسانا ومليارات ونصف عند جبل الأولياء (أو عند اسوان اذا امكنت تعلية الخزان وملؤه) وأربع وعشرون ملياراً في بحيرة البرت امكن القارىء أن يتصور ما يمكن زيادته من المساحات المزروعة في مصر والسودان وعند ذلك يشعر معنا بعدم توفيق تلك النصيحة التي اندفع الناس لها وراء انتقادات السير ولككس ومستر كندي والتي كانت ترمى الى غرض آخر

صحيح ان تفاصيل الانتفاع بهذه المياه وكفالة ما لمصر في ذلك من أولوية يحتاج الى دقة فنية كبيرة وان من حق المصريين المعترف لهم بهذه الاولوية أن يراقبوا تصرف مياه النيل منذ صدورها من منابعه وقد كان ذلك متبعاً الى آخر الحرب إذ كانت وزارة الاشغال المصرية قائمة بهذه المراقبة فعلاً لكن الأحداث السياسية التي حدثت بين مصر وانكلترا بعد الحرب بسبب مطالبة المصريين بحقهم الطبيعي في الاستقلال وحرصهم على وحدة مصر والسودان في هذا المطلب أدت مع الأسف الى منازعة إنكلترا مصر هذه المراقبة المترتبة حتماً على اولويتها في الانتفاع بمياه النيل وبلغ النزاع أشده على أثر مقتل السير لي ستاك باشا حاكم السودان العام بالقاهرة. فقد ذهبت إنكلترا في انذارها الذي وجهته للحكومة المصرية بتاريخ

٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ على أثر هـذا الحادث الى انكار أولوية مصر التاريخية والى أن أيدت حكومة السودان في إباحة زراعة ما تريد زراعتـه في سهل الجزيرة من غير حاجة الى أن يتم بين هـذه الحـكومة وحكومة مصر اتفاق سابق على هذه الزيادة ، ومن غير تقدير لما يترتب على هذه الزيادة من الضرر بأولوية مصر التاريخية في الانتفاع بماء النهر فلما هدأت الاحوال نوعاً وآن للتفكير السليم أن يحل محل العجلة التي اندفعت اليهـا انكلترا في تقرير سياستها بمصر على أثر الحادث عدلت عن هذه الفقرة من إنذارها ، وقررت أولوية مصر في الارتفاق على مياه النيل في وثيقة رسميـة ، واتفقت على ان تحدد لجنـة المساحة التي يمكن زيادتهـا على الثلاثمائة الف فدان المزروعة قطناً وأن تبحث كذلك مبلغ حاجات مصر لمياه النيل الازرق ومتى يجب أن يكون تصرف هذا النهر كله وقفاً على مصر فلا يكون للجزيرة الا ما حجز من الماء في خزان سنار

وقد قامت هذه اللجنة بالمباحث التي كلفت القيام بها ومع ان تقريرها لم يعلن حتى ساعة كتابة هذه السطور (ديسمبر سنة ١٩٢٦) فالمفهوم ان الاتفاق تم على أن تزاد مساحة مشروع الجزيرة الى أربعمائة وخمسين الف فدان بدل ثلاثمائة الف والحجة في ذلك أن خزان سنار يكفي متى ملىء لري نصف مليون من الافدنة وان ملأه لا يضر بحاجات مصر للماء ، فلا ضرر إذن من زيادة المساحة مائة

وحسين الف فدان أخرى والمفهوم كذلك أن قد تقرر أن بدأ حاجات مصر لتصرف النيل الازرق كله يقع في أول يناير في السنين العادية وفي ١٨ دسمبر في السنين الواطئة الفيضان وعلى ذلك يجب البدء بتفريغ خزان سنار في هذه التواريخ بدلا من ١٨ يناير وهو التاريخ الذي أشار اليه العمي بك في المذكرة التى أثبتنا صورتها في الفصل السابق

وقد اعترف لمصر في هذا التقرير بحقها في مراقبة تصرف النهر كما اعترف لها بمراقبة تصرف خزان سنار لكن تفاصيل الوسائل التى تتم بها هذه المراقبة لم تعرف بعد وهي لا تعني فيما أعتقد عير المهندسين

والمفهوم ان هذا التقرير وضع المبادىء المشار اليها بصفة مؤقتة يعاد النظر فيها عند تمام انشاء خزان جبل الاولياء وضبط المياه التى تستطيع مصر أن تستفيدها منه ذلك بأن إنشاء خزان جبل الاولياء كان امراً مقرراً يوم وضع هذا التقرير ولم يكن يدور في حساب أحد أن توقف الاعمال فيه لاعادة النظر في صلاحه أم في افضلية تعلية بناء خزان اصوان على إنشائه لكن الحكومة التى عقبت حكومة زيور باشا (وهي حكومة عدلي باشا ووزير الاشغال فيها عثمان بك محرم) قررت وقف العمل في جبل الاولياء وانتداب لجنة دولية للبت أي الاثنين أفضل انشاء الخزان المذكور أم تعلية خزان اسوان والى ساعة كتابة هـذه السطور أيضاً لم تحصر اللجنة الدولية التي قررت

الحكومة ا، لدامها مند ستة شهور ، ىل لم تدع هده اللحة للحصور ، ىل لم تجمع المعلومات والبيانات التي تمكن اللحنة من الفصل فيما يراد منها أن تفصل فيه

ولست فنياً في شؤون الهندسة والري لاقطع في الامر برأي . وهدا الموصوع لا يدحل في نطاق كتاب وصع عن عشرة أيام قصيتها في السودان لكن ما أحدث به نفسي في مقدمة الكتاب من أن أوجه حظا كبيراً من همي ومن عنايتي الى هده المسألة الخطيرة التي لم تنج في مصر كما لم تنج في السودان من شوائب الشهوات السياسية، والتي ما تزال سبباً لنشر دعوة تثير بين المصريين والسودانيين العداوة والبغضاء — يجعلني أخشى أن يكون الخلاف في مسألة اسوان وجبل الاولياء مشوبا بهده الشهوات السياسية بينما كان واجباً أن يظل في دائرة البحث الفني الصرف وأن يترتب عليه ما ترتب على الصيحة العامة التي قامت في سنة ١٩٢ بزعامة السير وليم ولكوكس والمستر كندي والتي اتهمت بما اتهمت به وأخشى أن يكون خلاف اليوم غير موفق كما كانت تلك الصيحة غير موفقة

والرأي عندي أن مشروعات الري التي تقام على نهر عظيم كبير كالنيل ليست معاقل سياسية يرجى من ورائها اخضاع شعب من الشعوب ولكنها تحوير في الطبيعة يتمه العلم لفائدة الانسانية . وليست مصر وليست السودان وحدهما هما اللذان يستفيدان من هده

المشروعات، بل تستفيد منها الانسانية جمعاء فائدة اقتصادية عظيمة وما دام صحيحاً، اقتصادياً، ان كل زيادة في الانتاج الزراعي او المعدني أو الصناعي تحدث في ناحية من الأرض تفيد الانسانية جمعاء فمن الجريمة أن تستغل أسباب هذه الزيادة لشهوات سياسية وسيان كانت هذه الشهوات في أمر مشروعات الري على النيل ناجمة عن مطامع انكلترا أوعن مخاوف مصر وأمام المصريين مثل في قناة السويس وموعظة. لقد حورت هذه القناة الطبيعة لمصلحة تجارة العالم كافة فزادت بذلك رخاء الناس طراً وبالرغم مما أثارته من الشهوات والمطامع السياسية التي أضرت بمصر فقد أفادت مصر من القناة فائدة مادية وفائدة معنوية كبرى واذا كانت لم تفد كل ما كانت تستطيع إفادته فليس الذنب في ذلك على هذا التحوير الصالح للطبيعة، بل الذنب على الظروف الخاصة التى أحاطت بالاجيال الحاضرة والتى نهيئها لتمهيد السبيل لسعادة الاجيال المستقبلة

ومشروعات الري الكبرى تحوير للطبيعة من هذا النوع. فالطبيعة تحمل مياه النيل تنحدر بها الامطار في فصل معين من السنة فتنساب في مجراه لتضيع في البحر الابيض المتوسط واذا امكن ضبطها للاستعانة بها في استغلال الاراضي القابلة للزراعة، وعلى زرع الانواع المختلفة في فصول السنة المختلفة، كان ذلك خيراً لمصر وللسودان وللناس جميعاً في أقطار الارض المختلفة وقد عولج ضبط

هذه المياه منذ قدماء المصريين وعولج في القرن الأخير نجاح . فمن الجريمة عدم ضبطها اليوم ولدينا من وسائل العلم ما يمكننا من ذلك

واذا كان واجباً أن يعلن أمثالي من غير المهندسين هذا الرأي بمثل هذه الصراحة فواجب المهندسين الذين يحترمون أنفسهم ويريدون أن يسخروا علمهم لمنفعة وطنهم وخدمة الانسانيـة ان يعلنوا آراءهم الفنية في هـذا الموضوع وفي كل موضوع يعتقدون صلاحه وفائدته . وليس يجدر بهم بحال من الاحوال أن يخلطوا اعتبارات السياسـة باعتبارات الفن فاعتبارات السياسة وقتية واعتبارات الفن دائمـة . والسياسة ظروف تنتهي ولكن العلم والفن مبادئ وقواعد تقرر وقد يبدو لك أمر من الامور السياسية اليوم في لون فاذا هو بعد زمن قصير في لون آخر وقد تحسبك مستطيعاً أن تحكم تصريفه سياسياً فاذا تقديرك انقلب عليك غداً فاضطررت الى البحث عن تصريـف لذلك الامر جديد ومثل هـذه الشؤون الدائمة المور مع الحيـاة لا يصح لعالم يبحث مسألة من المسائل المتعلق بها علمه أن يدخلها في حسابه إنما عليه أن يقول في طمأنينة ضمير وطهارة ذمة ما يعتقد حقاً عليه لعلمه وحده أن يقوله ويجب عليه لذلك أن ينسى ساعة ابدائه الرأي أنه ابن أمة ضعيفة وأن ينظر في الأمر لذاته لا للظرف السياسي المؤقت المحيط به

ولعل هذه النظرة العالية المتجردة عن العاطفة السياسية أهون

على المصريين في مشروعات الري الكبرى منها في اية مشروعات أخرى فالسودان ومصر وطن واحد فى الحقيقة وأهل اسوان أقرب الى حلفا منهم الى القاهرة والروابط التى تربط مصر والسودان كثيرة وثيقة ان صعصعتها أحداث السياسة يوماً فلن تفصمها ثم هي لن تصعصعها الا الى أجل وذلك الاعتبار أصبح اليوم منه فى كل يوم مضى فالامم فى الغرب والشرق تتقرب بعضها من البعض الآخر ولو كانت بينها فواصل طبيعية وليس بينها من الصلة ما بين مصر والسودان وكلما ازدادت وسائل المواصلات تهدمت الحدود الصناعية بل الحدود الطبيعية واذا كانت الامم تسعى اليوم للقضاء على الحواجز الجمركية التى أدت كثرتها الى ما يعانيه العالم منذ الحرب الكبرى من أزمات اقتصادية فمعنى ذلك أن ما أقيم فى الماضي من الحواجز الصناعية سيتهدم بطبعه

ولسنا الآن بعرض بحث هـذه العلاقة بين مصر والسودان فسنفرد لها الفصل الاخير من هذا الكتاب لكنما نورد ما أوردنا لنقول أنه اذا وجب على رجال العلم أن يطرحوا جانباً اعتبارات السياسة فى أبحاثهم فذلك أوجب فى بحث مشروعات الري الكبرى بين مصر والسودان

عشية الأول

يوم بحلفا و بشلال حلفا

عدت من جبل الأولياء مساء السبت ٢٣ يناير وقد اعتزمت السفر بالقطار الخاص الذي يبرح الخرطوم صباح الغد قاصداً حلفا . وكان في نيتي أن أتناول طعام العشاء ثم أحزم متاعي وآوي الى مضجعي لاستريح من عناء هذه الأيام التي قضيناها بالسودان في مثل نظام الجند حلا وترحالا لكن عزمي لم يتحقق أن ألفيت جماعة من أصحابنا الذين دعونا الى الشاي بالمكتبة القبطية أمس في بهو الفندق ومعهم بعض اخواننا المصريين الذين جعلوا من مقامنا بالخرطوم مقاماً بين أهل وأصدقاء فأمضينا شطراً من الليل تناول حديثنا فيه شتى من شؤون السودان وعادات السودانيين والمجهودات التي تقوم بها حكومة السودان في سبيل تعميره ليكون مزرعة من أبدع مزارع القطن في العالم وأهل السودان قسمان عرب وزنوج فأما العرب فيمتازون بدقة في قسمات الوجه و برقة الشفاه وارتفاع قصبة الأنف وهم ينقسمون أفخاذاً وعشائر كشعوب شبه الجزيرة أما الزنوج ففطس الانوف غلاظ الشفاه غائرو الاعين وهم يقيمون أغلب الأمر في داخلية السودان تحت أمرة سلطان منهم ما تزال نفسيته نفسيتهم

وروحه روحهم . و برغم امتداد الحضارة الى الخرطوم والى أم درمان عن طريق أهل الجنسيات المختلفة الذين يقيمون بهما وعن طريق المصريين بنوع خاص إذ يمتون الى العرب السودانيين بكثير من الصلات بينها الدين واللغة والمصاهرة والعادات ، فان داخلية السودان ما تزال في شبه الحياة الوحشية التي يقصون مثل قصصها عمن عاشوا في مجاهل الأرض منذ آلاف السنين . قص أحد الذين حضروا معنا في هذه الأمسية أنه كان مسافراً الى رجاف في المنطقة الاستوائية ، فمر بأحد السلاطين الزوج وطلب أن يحظي بالمثول في حضرة عظمته ولما كان يعرف من أمر هذه البلاد شيئاً كثيراً لم يدهشه أن ظهر له هذا السلطان في هيئة لا تمتاز على هيئة « أبي الودع » الذي يطوف متسولا في قري الريف بمصر ، وظهر من وراء السلطان مائتان ، معلمة رماحهم ،وكلهم في خدمته . فلما حظي محدثنا بحضرة السلطان قدم الى عظمته من الهدايا بعض المرايا و بعض الورق المفضض الذي تلف به قطع الحلوي ، فكان اغتباط عظمته بهذه الهدايا عظيما . ولعله أمر لمن قدمها بشيء كثير من العاج ومن ريش النعام .

وقص محدثون آخرون شيئاً من مثل هـذا القصص . فأذكرني ذلك جان جاك روسو ورجل الطبيعة الذي صوره في كثير من كتبه والذي جعله المثل الأعلى للسعادة وود معه أن تعود الانسانية الى احتذاء مثاله . وابتسمت لهذه الذكرى وتساءلت لو كان يرضي روسو

عثل عيش هذا السلطان وجوده ثم سرعان ما زالت ابتسامتي حين سمعت المحدثين يذكرون من شهامة هؤلاء الزوج و بسالتهم واحتقارهم الحياة وأقدامهم على الموت طائعين زالت ابتسامتي وتخيلت روسو منتصراً يقول « أرأيت يا صاح الى هؤلاء الذين كنت تحسبهم مثل الضعة والحقارة أنهم سعداء لان مطامع الحياة وشهواتها لم تكتسح من نفوسهم أسباب العظمة الحقة التي تصل الانسان بالطبيعة وتجعله حراً منها سعيداً بها مطمئناً اليها . وهم سعداء لأن العلوم والفنون لم تخدعهم بباطل زخرفها ولم تزين لهم من ألوان اللهو متاع الغرور ثم هم سعداء لأنهم يعيشون عيش البساطة فكل ما ينالونه من خير يزيدهم سعادة فلم لا تعيش الانسانية عيشهم فتطرح وراءها هذا الزخرف الباطل الذي تسميه الحقائق والعلوم والفنون والذي لا يزيد على أنه عبث الذهن ولهو الخيال ؟ »

وأمسكت عن الاندفاع في هذا التفكير حين اضطررت لمشاركة اخواننا لما تحدثوا عن مصر وأحوالها وسألوني عما اعتقده مصير ما تم من أحزابها من ائتلاف والحديث في السياسة كحديث الافاعي يطول فاستغرق كلام اخواننا في مصر وشؤونها بقية سهرتنا ، ثم ودعوني واعتذر جماعة منهم بعملهم عن توديعي ساعة الرحيل من الخرطوم

وتنفس صبح الاحد ٢٤ يناير واعتلت شمسة سماء السودان الصافية الاديم وتناولت الشاي وأعددت متاعي وذهبت الى قاعة

الطعام للافطار ثم حرجت من بهو الفدق الى حديقته الصعرى التي تفصل بين سياج الفدق و بنائه . وألفيت عند الباب سيارة كبيرة وسيارات صغيرة بعثت بها حكومة السودان لتقلنا جماعة ضيوفها الى المحطة في طريق عودتنا الى مصر وتخطيت الشارع وألقيت نظرة على صفحة النيل الأزرق وتلفت حولي أودع هذا المنظر الذى ألفته وألفني أسبوعاً كاملا في هاته اللحظة دب الى نفسي احساس يخالجها كلما فارقت بلداً احتواني وأنا في شك من العودة اليه . احساس الفراق يمترج فيه الألم بالامل ، والخوف بالرجاء وهل الفراق الا بعض صور الفناء والعدم والموت ! هل هو الا انهيار ما نفارق في لجة مالا نرى ومالا نحس الا خيالا وحدسا . في هذه اللجة الفسيحة الممتدة الى اللانهاية والمحجوبة عنا بآفاق قريبة لا تزيد على مدى ما تصل اليه حواسنا وهو انهيار مخوف في لجة الزمن الذى لا يذر العالم لحظة من غير نور ولا تجدد ومن يدري ما تكون الخرطوم وأم درمان والسودان أن قدر لي أن أعود اليه بعد سنوات ؟ ! هل أجد هذه الاشياء التي ألفت والتي أصبحت جزءاً من حياتي كما خلفتها ؟ أم أرى مكانها شيئاً جديداً أسدل عليها ستار الفناء وقام مقامها ! والحق عندي أن كل ما نرى وكل ما نحس وكل عاطفة تهز فؤادنا وكل فكرة تجول بخواطرنا هي بعض حياتنا القصيرة التي تنقضي بعد أن تصبح هي الاخرى بعض حياة الوجود الأزلي الابدى ولئن كان كل ما يصيب

المادة يترك فيها أثراً لا يزول — على حد قول هربرت سبنسر — فما أشك أنا في أن كل ما يصيب حياة الوجود يترك فيها أثراً لا يزول

دب الى نفسي الاحساس بالفراق حين رأيت السيارة الكبيرة التي أعدت لنقل المتاع والسيارات الأخرى التي أعدت لينقلها المسافرون ومن شأن الظروف التي تحيط بنا ساعة الفراق أن تحمل هذا الاحساس مبهما فنحن سأعتئذ في شغل بمتاعنا وبالمسافرين معنا وبما ينتظرنا في سفرنا وكنا جماعة المسافرين من الخرطوم أشد ما نكون شغلا فهذا يبحث عن بعض ريش النعام يهديه أصدقاءه في مصر أو في غير مصر وهذا قد نسى بعض ما ابتاع أمس في مخزن مقفل اليوم — يوم الاحد — ويريد أن يدبر الوسيلة للحصول على ما ابتاع وهذا ثقل متاعه فما يدري كيف يحزمه ورجال البوليس وسائقو السيارات يستعجلون المسافرين لينتهي واجبهم وأخيراً سارت السيارات تخترق بنا طرق الخرطوم فازدادت نفوسنا احساساً بمعنى الفراق ثم انطلق القطار في منتصف الساعة التاسعة يقطع الطريق التي قطعناها آتين من حلفا حتى بلغ عطمور أبي حمد بعد ما أرخى الليل سدوله وبلغنا حلفا في منتصف الساعة العاشرة من صباح الغد ونقل متاعنا من القطار الى الباخرة بريتانيا التي كان مقرراً أن تسافر في أوليات المساء فلم يك بد من أن نمضي النهار بحلفا

حلفا بلد صغير أشبه بنادر المراكز فى مصر فليس فيه ما يستوقف النظر ، وحكومة السودان جد حريصة على ان لا يشعر ضيوفها بشيء من الملال لذلك نظمت لهم سياحة صغيرة في الصباح الى معسكر حلفا كما نظمت لهم نزهة بعد تناول طعام الغداء على ظهر بريتانيا يزورون فيها شلال حلفا ويشهدون منه منظراً من أعجب مناظر الطبيعة وأكثرها جلالا وروعة

ومعسكر حلفا، والى جانبه بيت كتشنر ، يقع على نحو ثلاثة كيلو مترات من محطة وادي حلفا لذلك ركبنا اليه قطاراً سار بنا حتى كنا حذاه . وقد ركب معنا هذا القطار جماعة من الأمريكيين لم يكونوا بالخرطوم ولكنهم جاءوا الى حلفا للنزهة بعد أن قضوا في فندق الشلال باسوان زمناً غير قليل استحوا معه تغيير منظر اسوان والامريكيون شعب جديد حقاً فالامريكي لا يشعر بأنه مقيد كما يشعر أهل العالم القديم بأنهم مقيدون به من عادات ومن قواعد للسلوك في حركاتهم وفي تحياتهم وفى ملابسهم ولقد لفتنا منظر شاب يسير في سراويل بيضاء وينتعل حذاء ثقيلا غاية الثقل ويرتدي فوق أكتافه جاكتة وصدرية عجيب شكلهما ولم يكن الانكليز ممن معنا أقل منا دهشة لهذا المنظر ، وكان هذا الشاب يسير مع سيدة نصف ورجل متقدم الى الكهولة عرفت فيما بعد أنهما ابواه ، وأن هذا الكهل أستاذ باحدى الجامعات الامريكية واتصل بيني وبين

هذه الاسرة حديث طويل أبدى الشاب خلاله من العجب للانكليز والاوربيين ومحافظتهم مثل ما أبدوا من العجب لاستمساكه بالتقاليد ومع هذا النقد المتبادل وصل السمر بين الجميع فجعل كل يفضي الى أصحابه بما رأى وكيف تأثر به

معسكر حلفا فضاء واسع من الرمل لم يبق من آثاره الا قوس نجم لحجاه ساعة نزلنا من القطار ، وكان هذا الفضاء مضرب خيام فرق الجيش المصري التي جاءت مع مصطفى فهمي ومع كتشنر من بعده لفتح السودان على أنا لم نقصد بادئ الامر الى القوس ولا الى الفضاء الذي اصبح صامتا وكان من قبل معسكراً لرجال الحرب وعدته ، بل ذهبنا الى دار قيل انها محافظة أو ما يشبه المحافظة كل ابوابها موصدة وليس في عمارتها ما يلفت النظر وانتقلنا من هـــذه الدار الى دار أخرى كانت منزلا لكتشنر شعرنا أول ما دخلناها بابتهاج أثاره في نفوسنا ذلك الزرع الناضر والخضرة الناشئة القائمة أمام المنزل والممتدة الى شاطئ النيل ولقد استوقفنا هذا المنظر الناعم وسط جفاف الصحراء حوله ، وأخذ بمجامع الفؤاد انفساح النهر وقيام كثبان الرمل وراءه متموجة بين صعود وهبوط كأنها بعض موجه حين الفيضان . وكان للشمس فوق هذا المنظر وفي ذلك اليوم من أيام الشتاء سنا يأخذ بالابصار ثم ادرنا عيوننا الى ناحية هذا النزل الذي شهد من

تدابير الحرب والسمك ما شهد والدي اصبح اليوم صامتا صمت مصطلى فهي وكنتشنر في حجب الغيب وإن كان على حلاوتهما ما يزال معرضاً لبعث الحياة ولتدابير الحرب والسمك تلاث غرف قيمتها ما تكسبه من الذكرى لا جمال فيها الا جمال ماشهدته من بطولة واقدام ألم يكن الذين اقاموا فيها قواد الجيش المصري الباسل الذي نفذ الخطط التي وضعت بشجاعة وجرأة سجلا له على التاريخ فخراً خالداً ! وعلى ظاهر جدران احدى الغرف نقش تذكاري للذين اقاموا فيها واحتملوا مع الجند ما احتملوا من مصص وتضحية والى جانب اللوحة زير قديم من الفخار لعله في هشاشة بانه اصلب على الحياة من أولئك الذين شربوا من مياهه ولم يبق لهم اليوم على الحياة غير الذكر والزير لا يزال باقيا تمجده الانظار ويود اصحابها شربة من مياهه وتعلقت الانظار بهذه الاثار وجاهد كل مصور يريد أن يأخذ منها رسما برغم معاكسة الشمس له على أن الانظار لم تكن بالحديقة وبالنهر وبكثبان الرمل على شاطئه الثاني أقل ولعا فكانت ما تكاد تستقر على البناء برهة حتى تعود لتجتلي من هذا المنظر البديع المتجدد على الزمان ما تجدد الزمان جماله الساحر وسحره الفتان

وخرجنا الى فضاء المعسكر القديم والى القوس الباقي من آثاره وذهب البعض بخيالهم الى ذلك التاريخ القريب حين كانت الجنود

الداهبة من حلفا الى الخرطوم تقف في هذا المعسكر الى أن تتلقى الاوامر بالاندفاع في تيه العطمور لانشاء سكة الحديد أو لسحب السفن بين احجار الشلال و بقي آخرون سعداء بالجو الجميل حولهم و بالصور التي كان يأخذها المصورون لجماعتهم وكان وقت الظهيرة قد اقترب فعدنا أدراجنا الى القطار الذي عاد بنا الى محطة حلفـا حيث نزلنا عائدين الى بريتانيا

ونلنا من الراحة ما نلنا ثم انتقلنا بعد تناول طعام الغداء الى سفينة أخرى سارت بنا جنوباً نحو ساعة ولما بعدنا عن حلفا بضعة كيلو مترات تبدت أمامنا مقدمات الشلال ، فانتشرت في لجة النهر آكام صخرية من الجرانيت الاسود كانت مبعثرة بادىء الامر فالماء من خلالها فرصات يبعد منها لكنها كانت يقترب بعضها من بعض كلما اقتربنا نحن منها حتى تلاحمت أو كادت وحتى لم يبق للماء أمام العين الا مسارب تقف عند نتوء صخري قريب وملأت آكام الجرانيت ما بين الشاطئين وترامت الى مرمى النظر والى غاية الافق متموجـة في لونها الداكن كأنها ظهور قطيع ضخم من الفيلة ما تكاد تتحرك أو تلتوي الا بمقدار عبث الضوء بها وانعكاسه عنها . وامتدت بين هذا القطيع من الجرانيت أبصار تلتمس التماسيح التي خرجت الى

رمال الشاطئ، تنال دفء شمس الشتاء المحسنة قال الامريكى دو السراويل البيضاء

— لقد جئنا أمس الى هنا ورأينا من التماسيح قطيعاً كبيراً تمدد كل واحد من أفراده على الرمل وعرضاه الى الشمس يشتفى بأشعتها من علل الشتاء

ونزلنا من السفين الكبير الذي اقلنا من حلفا الى زورق أوتومو بيل ليتسرب سابحاً في تعاريج القنوات التي بين الصخور، والتي لا تتسع لزورق اكبر منه، كي نصل الى قمة عالية هناك يحيط الناظر منها بالشلال كله. وفي لحظة نور الشمس الساطعة سري بنا الزورق وكأننا في لجة ليل بهيم فاتت بين اكمتين سوداوين وأمامك على أمتار اكمة سوداء ثالثة تكاد تتصل بهما وتقطع الطريق أو يرتطم الساري وتلتمس مسارب الماء بين ما تمر به من آكام الجرانيت فيرتد بصرك ولم يهدك شيئاً ثم اذا الزورق انحرف فجأة ليحادي الاكمة القاطعة عليه طريقه فما يكاد يحاديها حتى تنجم أمامه اكمة جديدة يتلوى من حولها كما يتلوى الثعبان في مسارب الأرض ولم تمض دقائق فاذا بنا في غابة كثيفة من صخر رهيب مخوف لكن روح الجماعة في طبعها المرح مالم يلجمها الوجل أو يستترها العصب لذلك ظل أصحابنا تلمس أعينهم التماسيح التي قص عليهم الشاب الامريكي أمرها فاذا خدع أحدهم

بصره وحيل اليه أنه رأى تمساحاً ثم تبين أن لا تمساح الا في خياله تبودلت النكات من جوانب الزورق عن ضخامة الحيوان الموهوم وعن ذنبه الذي كاد يلاقي ما في النهر وعن فكه المرتفع ليبتلعنا ولم يكن مخدوع البصر أقل نصيباً في النكات من غيره ومالنا لا نمرح ومعنا الدليل الذي قص علينا أنه يتسرب بقاربه في هذه اللجة عشرات المرات في كل شهر ومعنا النوبيون من أهل هذه النواحي يفخرون بأنهم يعرفون مسارب الشلال اكثر من معرفتهم أزقة قراهم ثم مالنا لانجد في هذا المنظر الرهيب موضعاً لمسرة وبيننا سيدات وفتيات في تشابه المتورد الوجنات ما يضيء الحالك ويبدد الظلم وهن نزهة هذا المنظر معجبات بل مفتونات

وطال بنا تسرب الزورق وتلويه من غير أن نخطئ بتمساح واحد من سرب صاحبنا الأمريكي حتى انتهينا الى الشاطيء عند أسفل القمة العالية وأسرعنا جميعاً لتسلقها ، وما كدنا نبلغ منتصفها حتى شعر كثيرون بالتعب فالقمة رملية تغوص فيها الاقدام غوصاً وتحتاج من أجل ذلك الى مجهودين تخليص القدم من الرمل ، ثم التسابق للغوص به في الرمل من جديد لكن الشباب لا يعرف المشقة ولا يعجزه التعب والطفولة لا تشعر بتعب ولا بمشقة لذلك أسرع الاولاد والبنات وأسرع الشباب والشابات الى رأس القمة وفي النفس الانسانية وان شق عليها الجهد غريزة المنافسة وحب الفوز .

وكم كان عجباً منظر شيوخ وعجائز هدهم التعب وأضناهم الكلال ثم لا يريدون أن ينظر اليهم الجيل الذي بعدهم وكأنهم أضعف منه حولا أو أقل حيلة انظر الى هذه العجوز البادنة المترهلة الشمطاء الشعر كيف تلهث ! لكنها مع ذلك تستعين بنوبي يصل بها غاية القمة لتكون مع أبنائها وحفدتها بما يخيل اليها أنها تملك الحياة ملكهم وتستمتع بها استمتاعهم وهي كلما غاصت قدمها وغاص معها قلبها وقفت ريثما تسترد قلبها أولا وتستشل قدمها بعد ذلك وما كنت وما كان غيري ، ونحن نطل عليها من اعلى القمة ، نحسب انها بالغة ما تحتمل كل هذا الجهد في سبيل بلوغه لكن الارادة القوية غالبة أبداً وبارادتها تغلبت هذه السيدة على الهرم وضعفه ووقفت معنا في اعلى القمة تمتع طرفها بالمنظر الرهيب العجيب

ما كان أصغر هذه القمة حين كنا بعيدين عنها ننظر اليهــا من فوق السفين الذي جاء بنا حتى أبواب الشلال ، وما أصغرنا نحن الآن فوقها ! وقف هذا الجمع الحافل الحاشد من أشتات جوانب الارض في مصر وانكلترا وأمريكا وايطاليا وغيرها ، حول بضــعة أحجار منثورة فوق رمال هذا الاكمة ، فاذا هو من قلة الكم بما لا تلمحه عين من طلوا فوق السفين لكنه مع قلة كمه صلة ما بين هــذه الأقطار الشاسعة التي يتكون العالم منها ، وهو لذلك روح هــذا العالم الذي

نعيش فيه ثمه يستمد العالم أدق ما في حياته وحركته وهو لذلك صغيرعظيم ، لكن عظمتــه ليست في أفراده ، بل هي في الروح الانسانية الخالدة التي تعظم على الزمان كل يوم بمــا ترث على الزمان من سلطان والتي تزداد عظمة بما تشتمله من الوجود في سلطانها وما تذيبه في الوجود من نفسها

واذا كنا صغاراً فوق الاكمة فماذا نكون فيما حولنــا والاكمة ليست منه شيئاً مذكوراً مددنا الطرف نريد أن نجتلي غاية الشلال وأحجاره فأرتد دون هــذه الغاية وقد ملأته الآكــام الحجرية النابتة في الماء رهبــة ، وأحلناه فيما حولنا من كثبان الرمل المهيــلة ، فأخذته وإياها الى الافق في موج لألاء تحت أشعة الشمس المنحدرة الى المغرب ، وتخطينا به النهر فاذا بعض أشجار تحيي في هذا المحيط العابس خدة الابتسام ، ثم تبدت رمماً فوق أكمات الجراديت النابتة في الماء تحيط بها قنواته الضيقة فما يكاد بعضها يتسع لمثل القارب الذي تسرب بنا خلال الشلال الى حيث ارتقينا القمة التي نطل الآن من فوقها وبدت على الوجوه علائم الدهشة ولاكبار هذا المنظر العجيب، فساد الصمت جمعنا حيناً ثم بدأ الجمع يتدرك القمــة عائداً الى القارب يا عجباً ! ما اكثر ما يتغير منظر هذا السرب من الهيــلة الجاثمــة في الماء ، وكلما تدرك الهابط سفح القمــة بدت تحت ضياء

حديد فأحدث صورة غير صورتها فبعض يزداد من بعض اقترانا وبعض يزداد عن بعض بعداً ، وكذلك تتغير المحسوسات تتغير موقفا منها ، فماذا يكون شأن ماتسميه الحقائق في هذه النظريات من تصورات الذهن وأبنية الخيال !

وجلست أثناء هبوطي على حجر جاثم فوق الرمل وتلفت حولي فلم أر أحداً بالقرب مني أن كان كثيرون ما يزالون بأعلى القمة وكثيرون غيرهم وصلوا القارب وجعلت أناجي نفسي ماذا نكون من هذا الوجود العظيم ! وما حياتنا التافهة القصيرة الى جانب هذا الخلد الساجي تبدو حكمته في سكينة ما حولنا وطمأنينته واني لفي نجواي اذ مرت العجوز البادنة معتمدة على نوبيين وهي تلهث في نزولها كما كانت تلهث في صعودها لكن الابتسامة على ثغرها كانت تعبر عما يدور في خاطرها من عظم الغبطة لانتصارها على ضعف الشيخوخة واقناعها بذلك نفسها أنها ما تزال قديرة على حمل عبء الحياة الثقيل اللذيذ

وعدنا الى زورقنا فعاد يتسرب بنا بين صخور الشلال حتى السفينة التي ظلت في انتظارنا وعلونا سطحها والشمس تتأهب للمغيب ثم انتقلنا منها الى بريتانيا التي سارت بنا قبيل العشاء

وفي الأيام التي قضيناها بهـا حتى أسوان عادت الى خاطري

صورة الشلال وصورتنا فوق الربوة نجاهد، عبثا ،لنحيط بكل حدوده رغم ما نزعم من الاحاطة حتى بحدود المجهول لكن هذا العجز الذي يمسكنا ونحن وقوف يزول اذا تحركنا فاختزنا في خيالنا صور الشلال وغير الشلال جزءاً بعد جزء وهذه الخيالات المختزنة هي قوتنا وذخرنا في الحياة وهي الميراث الذي تتعاقبه الاجيال فنزيد الانسانية صلة بالوجود وسلطانا عليه

وبلغنا اسوان صبح الاربعاء وبلغنا القاهرة صبح الخميس ، فعدنا يهزنا برد الشتاء بعد عشرة أيام قضيناها في ربوع لا تعرف الشتاء .

مصر والسودان

لا أستطيع أن أختم هذا الكتاب من غير أن أتناول علاقات مصر والسودان بكلمة وليست غايتي من التكلم عن هذه العلاقات غاية سياسية فلعل القارىء قد أدرك من خلال الفصول السابقة أني لم أتأثر في أية مسألة من المسائل التي عرضت لها بأهواء السياسة أيا كانت وانما توخيت ما يمليه العدل وما تقضي به المصلحة الانسانية العليا التي لا تقف عند حدود مصر والسودان بل تتجاوزهما لما يمكن أن يستفيد العالم كله مما في هذه البلاد من خيرات وانما غايتي أن أبين أن خير السودان وخير مصر وخير هذه المصلحة الانسانية العليا التي تستفيد منها انكلترا قبل أن تستفيد منها أية أمة أخرى انما يتحقق على وجه أكمل كلما ازدادت مصر والسودان إرتباطا سواء من الجهة الاجتماعية أو الجهة الاقتصادية أو الجهة السياسية وكلما تعاونتا من طريق هذه الرابطة الوثيقة في سبيل ترقية مصادر الانتاج المادية والمعنوية فيهما

ولست أريد من أجل هذا البيان أن أدلل على أن مصر والسودان مرتبطان تاريخيا بروابط قديمة تجعل من حق مصر أن تطالب بالسودان كما كانت فرنسا تطالب بالالزاس واللورين ولست

أريد كذلك أن أقيم الحجة على ما أنفقته مصر في السودان من مهج وأموال أو أن أرجع الى التاريخ لأي سبب من الأسباب فالتدليل التاريخي في مسألة كعلاقة مصر بالسودان أشبه الاشياء بالمرافعات التي تحتاج الى قاض للفصل فيها والقاضي في العلاقات التي تربط الدول بعضها ببعض هي المصلحة الحاضرة التي يراها أبناء هذا الجيل من غير حاجة للرجوع الى أسانيد التاريخ ووثائقه

ومن نافلة القول ذكر الرابطة الطبيعية بين مصر والسودان وما توجبه هذه الرابطة من ضرورة توثيق الصلات بين هذين الجزأين من أجزاء وادي النيل وحاجة مصر الى توثيق هذه الصلات وتوكيد تلك الروابط أوضح فليس كمصر بلاد معلقة حياتها بنهر واحد وليس يصدق على بلاد ما يصدق على مصر من أنها هبة النيل ولولا النيل لكانت مصر بعض الصحراء الافريقية الكبرى ولوصلت هذه الصحراء ما بين المحيط الاطلانطيقي والبحر الأحمر لذلك كان هم المصريين في كل الأزمان بل كانت حياتهم معلقة على هذا النهر فكل ما تتأثر به مياهه من ظروف الطبيعة أو من عمل الانسان تتأثر به مصر وما نظن التاريخ يذكر أن المصريين ابتهلوا الى الله في ضراعة وخضوع كابتهالهم اليه ليتم على النيل فيضانه ولا نظن المصريين فكروا في أمر من أمور حياتهم تفكيرهم في هذا الماء المخصب المحسن الذي يجيء اليهم من طريق السودان يحمله المجرى العظيم بين جروفه

فاذا كان أكبر همّ المصريين متجها الى الجنوب وكان أكثر تفكيرهم في الصلات التي تربطهم بجاراتهم النيلية وفي توكيد هذه الصلات وتوثيقها فليس ذلك منهم جنوحاً في الفتح أو اندفاعاً وراء شهوة الاستعمار التي يجري وراءها كثير من الأمم بل هو الحرص الطبيعي على الحياة حرصاً أصيلا في سليقة كل حي وفطرته

على انه اذا كانت حاجة مصر الى توكيد الروابط بينها وبين السودان أوضح من حاجة السودان الى مثل هذا التوكيد لموقع السودان عند منابع النهر فليس ذلك معناه أن السودان أقل من حاجة مصر لتوثيق الصلات بينهما ولئن كان السودان منبع الحياة المادية التي تفيض على مصر مع فيضان النيل فمصر هي منبع الحياة المعنوية التي تفيض على السودان مع فيض الحضارة أيا كان مصدره وكما تحيط الصحاري بمصر فتقصر حياتها على ما يغذيها النيل به من مياهه كذلك تحيط الصحاري بالسودان وتفصله عن مصادر الحضارة ولقد بالغت الطبيعة في ذلك حتى ليحسب الانسان حين ينظر الى خريطة النيل أن حوضه عالم مستقل فيه كل ما تحتاج اليه الحضارة من ادواتها وأسبابها ولقد فتحت موانىء على البحر الأحمر لتصريف تجارة السودان ولجلب التجارة اليه لكن هذه الموانيء لا تصلح ولن تصلح لتكون باب الحضارة والعمران بل كانت الحضارة وكان العمران ينطلقان الى السودان من طريق مصر أكثر مما ينطلقان اليه

من أي طريق آخر ولذلك كان السودان بأرجائه الفسيحة هو المهجر الطبيعي لمصر تحمل اليه من أسباب حضارة العالم ما يشركه نصيب في هذه الحضارة

وقد كان الغزو والفتح وسائل الحضارة في الماضي فكانت الدول ذوات الحضارة القوية تغير على غيرها من الدول فتفيد من حضارتها وتفيدها من الحضارة القوية ولذلك كثيراً ما اتصلت الحروب بين مصر والسودان لاستبقاء الصلات الطبيعية التي يجب أن يشعر السودانيون والمصريون جميعاً بمحاربة أسباب ضعفها لا بالمحاربة في سبيل وصلها . على أن تقدم العلم وتقريبه بين شعوب العالم المختلفة وتضييقه دائرة الأرض جعل الغزو والفتح منظوراً اليهما بعين المقت حتى من الاقوياء الذين كانوا يستفيدون منهما وكلما ازداد العلم تقدماً وازدادت الشعوب بعضها من بعض قرباً وتمتنت الروابط العقلية والمعنوية وتحطمت الحدود والحواجز زادت أسباب التعارف والتفاهم وأصبحت وسائل العنف والبطش بين الجماعات منظوراً اليها بعين المقت والازدراء مثلها اليوم بين الأفراد والطوائف . ويومئذ تكون بين شعبين متجاورين أو بين شعب واحد يقيم في بقعة من بقاع الارض يسر العلم أسباب الرغد فيها شيئاً مححاً وأمراً منكراً ويومئذ يحل التضامن بين الشعوب محل التنافس ويكون بين الشعوب المتجاورة التي تصل الطبيعة بينها أقوى رباطاً وأمتن

عقدة ثم تكون كل الاسباب الصناعية الطارئة على هذا التضامن والمفسدة إياه موقوته مرهونة بالزوال

لا مفر إذن من أن يكون هذا التضامن بين مصر والسودان على القواعد التي تقضي بها ظروف الحضارة في الوقت الحاضر وأدوات هذا التضامن كثيرة أشرنا الى بعضها حين الكلام عن مشروعات الري الكبرى فهذه المشروعات يجب أن لا تراعي فيها الا الاعتبارات الفنية التي تؤدي الى حجز اكبر مقدار يمكن حجزه من مياه النيل لانتفاع الاراضي الزراعية الواقعة على شاطئيه من أول مصر ذات الاولوية التاريخية في هذا الانتفاع الى آخر منابع النيل كذلك يجب على مصر أن تكون المنبع الذي تجري منه اسباب الحضارة الى السودان . فليس الى السودان سبيل للحضارة غير هذا المنبع . ذلك لأن المصريين اكثر العناصر امتزاجا بالسودانيين منذ اجيال طويلة وائن كان هذا الامتزاج قد اقترن في احيان كثيرة بعناصر سيئة من جانب أو من الجانب الآخر فانه خلق بين الشعبين من الاواصر ما ييسر التفاهم بينهما الى حد كبير والحضارة اذا مرت بمصر كان يسيرا أن يسيغها السودانيون بسبب هـذه الاواصر وأما اذا حملتها الى السودان عناصر أخرى ولو كانت من أمم اعلى من مصر في الحضارة كعنا فأنها لا تتأقلم في السودان بمثل السهولة التي تتأقلم بها حين تحملها العناصر المصرية ولعل الاسباب التي ادت في الماضي الى

عدم نجاح مصر فى حمل هذا العبء الانساني في السودان أن الذين كانوا يقومون برئاسة المصريين هناك كانوا من عناصر غير مصرية، وأن المصريين الذين كانوا مرؤوسين لهؤلاء كانوا من طراز محتاج لاسباب الحضارة فلايستطيع ان يقدمها لغيره واعتقد اعتقاداً أكيداً أن مصر تستطيع أن تعاون السودان في هذا المضمار معاونة جدية اذا وجد من المصريين ذوي المكانة والمقدرة من يتطوعون لهذا العمل من غير أية فكرة سياسية بل بدافع التضامن بين الشعبين وتحت تأثير الفكرة الانسانية السامية وحدها

اعلم أن اعتراضا عمليا له قيمته يقف في هذا السبيل ذلك وجود الانكليز في السودان وقيامهم بالحكم فيه وهو اعتراض صحيح إذا كان الانكليز يريدون حكم السودان لمجرد الحكم والاستعمار. وهذا مالا نعتقده فللانكليز مصالح بريطانية يقتضونها من السودان أهمها القطن الذي يزرع فيه ولعل المواصلات الامبراطورية بعض هذه المصالح كذلك لكن الانكليز لا مصلحة لهم في اعاقة تقدم السودان وتحضيره وكلما تقدمت الحضارة في السودان وكان أهله اقدر على الاستفادة من وسائل العلم كانوا اكثر انتاجا في سوق العالم العامة من جوانبها المختلفة ولانكلترا في هذا مصلحة أي مصلحة ولئن كانت الظروف السياسية قد قضت في الماضي أن تقف مصر وانكلترا في السودان موقف الخصومة فاعتقد أن الانكليز والمصريين

فقد ادركوا تمام الادراك سوء تلك السياسة وعقم نتائجها بالنسبة لانكلترا ولمصر وللسودان جميعاً. فمن الحكمة — وهذه هي الحال — أن يقدروا وجوب اتجاه السياسة في المستقبل الى غير ما كانت سياسة السودان الى اليوم

وليس نظام الحكم في السودان هو المشكلة العويصة في رأيي. واعتقد أن من الممكن التفاهم في هذه المسألة بين مصر وانكلترا على أن تكون السودان ومصر متحدتين بينهما مثل نظام ال federation فيكون لكل في المسائل الداخلية حرية التنظيم والتشريع وترتبطان جميعاً في المسائل الخارجية والمسائل العامة باتفاق مقررة قواعده وليس المقام هنا مقام تحديد أو تفصيل لهذا الاتحاد قبل قبول مبدئه فاذا قبل هذا المبدأ كان وضع التفاصيل يسيراً واحسب أن مثل هذا النظام في مرونته وقابليته للتحوير يستطيع أن يحقق غايات الاطراف المختلفة

وقد يمكن اذا قبل مبدأ هذا الاتحاد أن يترك النظر في مصالح انكلترا وامتيازاتها في السودان الى حكومة السودان نفسها تحلها في حدود المسائل المتروكة بموجب نظام الاتحاد لتصرفها

وبخيل الى أن حلا كهذا قد يكون من شأنه أن ينهي مسألة معلقة لا فائدة لاحد من تعليقها ، وأن يحل الى جانب ذلك مسائل كثيرة كمشروعات الري الكبرى وكتحصير السودان وما الى ذلك

مما يفيد السودان ومصر على السواء من غير أن ينشأ عنه ضرر لأية مصلحة من المصالح

واذا كان المؤتمر الامبراطوري البريطاني قد قبل مبدأ مساواة الممتلكات المستقلة مع انكلترا وأن يكون رباطها جميعاً ولاءها للتاج وذلك لمصلحة الامبراطورية البريطانية ولفائدة السلام في العالم، فأن مثل هــذه الفكرة الحرة فكرة الاتحاد بين مصر والسودان قد تسهل الوصول الى حل مسألة السودان حلا موافقاً لمطلب مصر من غير مساس بما للدول من المصالح فيهما

ولهذا الحل مزايا يعود أكثرها على السودان كما أن لمصر منها فائدة لا تنكر وهو في نفس الوقت يكفل لانكلترا أن تحصل من السودان على المصالح والامتيازات التي ترمي الى تحصيلها من غير أن تضطر لحمــل عبء المسؤوليات المستقلة التي تحملها اليوم فيه

وأول مزايا هذا الحل أنه يحقق ما يريد المصريون والسودانيون من وحدة القطرين، من غير أن يجنى ذلك على عزة أي منهما، ومن غير أن يعوق تقدمه متأثراً بعوائده وعقائده واعتباراته القومية الخاصة وهو مع ذلك لا يجد من الاعتراض عليه ما يجده الاندماج التام بين القطرين فالذين يريدون هــذا الاندماج يبنونه على التاريخ وعلى وحدة الجنس والعادات في مصر والسودان وخصوم الاندماج

ينكرون وحدة الجنس ويذهبون الى أن السودانيين غير المصريين والى أن طوائف العرب في مصر وفي السودان لا تكون سواد الشعب في أي من البلدين وإنما هي أقليات طارئة جاءت في عصور الفتح الاخيرة . وهم ينكرون كذلك وحدة العادات ويذهبون الى أن تطور الحضارة في مصر غير من عاداتها القديمة حتى لو ان شيئاً من الوحدة كان موجوداً في الماضي بين عادات المصريين والسودانيين فقد انقطع اليوم وسواء أكان هذا الاعتراض صحيحاً أم باطلا فهو لا يغير من العلاقات الطبيعية التي بين القطرين والتي أشرت اليها من قبل وهو لذلك اذا أمكن جدلاً ان ينهض عائقاً في سبيل الاندماج فلا يمكن أن ينهض عائقاً في سبيل الوحدة

فالاتحاد السويسري والولايات الامريكية المتحدة ليس بين الولايات التي يتكون منها أي من هذين الاتحادين مثل ما بين مصر والسودان من شبه أو علاقة انما تصل هذه الولايات روابط المصلحة البحتة فأما ما سوى ذلك فيختلف بين ولاية وولاية اختلافاً بيناً فسويسرا على صغرها يتكلم أهلها ثلاث لغات مختلفة هي الفرنسية والالمانية والايطالية ، ويدين أهلها بمذاهب مختلفة، ولا تجمع بينهم الا طبيعة بلادهم الجبلية من ناحية ومصالح الدول المتنافسة المحيطة بهم من ناحية أخرى والولايات الامريكية المتحدة تجمع من مختلف الامم واللغات والالوان لكن رابطة الجوار والمصلحة تسمو فوق كل

اعتبار آخر وتجعل من الاتحاد الامريكي قوة قومية وعالمية منقطعة النظير

ثم ان اعتراضاً آخر يقيمه جماعة من المصريين أنفسهم يجعل الاتحاد وسيلة صالحة ذلك أن نظام القبائل والعائلات قد زال من مصر ولم تبق منه الا آثار لا قوة لها ولا سلطان وحل محله النظام الديمقراطي الصرف الذي يجعل الحياة الدستورية هي الحياة الوحيدة الصالحة كنظام للحكم في مصر وأما في السودان فما يزال نظام القبائل والعائلات هو النظام الاساسي الذى تقوم عليه الجماعة السودانية . ولئن كانت التطورات العالمية المقبلة قد تدفع السودان كما دفعت مصر نحو النظام الديمقراطي فان هذا التطور بحاجة الى زمن غير قليل. والى أن ينقضي الزمن اللازم لتمام هذا التطور فمن العسير ، بل من التعسف ، إخضاع السودان للنظام الذي تخضع مصر اليوم له

وثمت اعتبار آخر يحملنا نفضل نظام الاتحاد بين مصر والسودان على نظام الاندماج ذلك أن مصر متهمة في سياستها بازاء السودان بأنها سياسة استعمار لا سياسة تحرير وهذه التهمة تروجها ألسنة السوء كما روجت من قبل تهمة حرص مصر على الاستئثار بمياه النيل. ولا تكتفي هذه الالسن باتهام المصريين بالميل للاستعمار بل تذكر السودانيين بأيام قديمة كان نواب حاكم مصر في السودان يسلكون مسلك العسف والاستبداد ويصورون هذا المسلك نظاماً لحكم المصريين ومع بطلان هذه التهمة أمام التاريخ والحق لأن هؤلاء

الولاة الدين كاوا يوفدون الى السودان لم يكونوا مصريين وانما كانوا من حس الحكام الدين يحكمون مصر نفسها ، فانا نعتقد أن المصريين أحرص من أن يتهموا بالميل للاستعمار وانهم يريدون للسودان التقدم الحقيقي نحو الحرية ودلك يتحقق تماما تحت نطام الاتحاد فيومئد يكون المصريون الدين يدهبون للخدمة في السودان إنما يدهبون بدافع محبة السودان والحرص على رقيه لا بدافع استعماره وحكمه ويومئذ يجد السودانيون الوسيلة للرقي ولتحقيق كل معاني العزة القومية

ولهذا الحل مزايا يعود اكثرها على السودانيين انفسهم فهو يطمئن جميع المصريين تمام الطمأنينة على مشروعات الري الكبرى ويزيل من نفوسهم كل خوف من أن تكون هده المشروعات يوما من الأيام وسيلة لاكراههم على قبول ما لا يقبلونه اختياراً أو سبباً لارغام عزتهم وادلالهم ويومئد تتسع الاراضي المصرية القابلة للاستغلال وتضعف في نفوس المصريين فكرة الهجرة الى زمن طويل مقبل وإذ كانت النفس الانسانية غير مولعة بالانتقال الا بدافع المصلحة وكان الاكثرون لا ينظرون الا لمصالحهم الخاصة القريبة فان المصريين الدين يدهبون في هده الظروف الى السودان سيذهبون تحركهم عواطف انسانية سامية تريد أن تمتن صلة الحضارة بين السودان وكافة مواطن الحضارة التي يتعذر انتقالها الى السودان عن طريق غير مصر كما سبق القول وما نشك في أن

هؤلاء سيعاونون على سرعة رقى السودان في مضمار التقدم الانساني ما دامت ادوات الحضارة المادية تشاد فيه فتعاون على تزايد سكانه وعلى أخذ ابنائه بنصيب في المعارف اللازمة لزيادة الرغد والرخاء في ارجائه .

ونعتقد أن السودانيين يشعرون بشعورنا هذا، وأن الانكليز الذين أقاموا بالسودان منذ افتتاحه وتعاونوا مع المصريين في تنظيمه يشعرون بهذا الشعور كذلك . ومهما كانت احداث السياسة قد دعت في بعض الظروف الى اعلان سيئات عن المصريين واعمالهم في السودان فالحقيقة التي لا ريب فيها أن المصريين كانوا دائما اشد العناصر صلة بالسودانيين واكثرها عطفاً عليهم، وأنهم لم يكونوا في السودان يحركهم عاطفة الانانية التي تحرك غيرهم من النازلين اليوم فيه ، والتي تدفع هؤلاء الى أن يقصروا نظرهم على المصلحة الشخصية والحرص على اقتناء الثروة

وهذا الحل ادنى الى المصلحة البريطانية من نظام السودان الحاضر. فهو حل يرضى عزة السودانيين ويتفق وكرامتهم القومية وهو لذلك يبعد السودان عن اسباب القلق التي تكلف الحكومة البريطانية مسؤوليات الامن والنظام في السودان وما يترتب على هذه المسئوليات من نفقات يحتملها دافع الضرائب الانكليزي من غير أن يكون لاحتماله إياها ضرورة ملجئة ثم هو حل يتفق وتطور العالم في سبيل التضامن السلمي

المنتج لخير الجميع . والذي اصبح يحل رويداً رويداً محل القوة والاكراه والاستعمار . وهو من جهة ثالثة اقرار لنظام مرن لا يتنافى مع ما تريده انكلترا من تقدم زراعة القطن في السودان ومن نجاح مشروع الجزيرة نجاحاً باهراً وهو فوق ذلك يعين على هذا النجاح ويجعله اقرب منالا وأقل نفقات مما يطوع للمصريين من الاخذ فيه بيد السودانيين ومعاونتهم إياهم معاونة هي لا شك خير واجدى من معاونة الفلاتة وغير الفلاتة من المزارعين الطارئين ولئن كان المصريون قد ترددوا في هذه المعاونة لما دعتهم انكلترا اليها من طريق شركة الجزيرة في سنة ١٩١٣ فذلك لأن ظروف السياسة كانت يومئذ مبعثاً للخوف والقلق . بينما اقرار نظام كنظام الاتحاد بين مصر والسودان وما يترتب على هذا النظام من الطمأنينة لنفوس المصريين يزيل كل اسباب الخوف والقلق

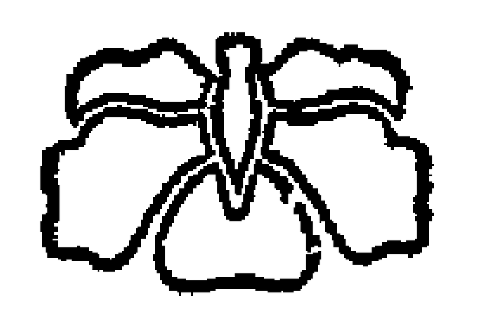
وثمت اعتبار آخر لا يمكن أن يغيب عن فطنة السياسة البريطانية وبعد نظرها ذلك أن سواد المصريين لا يمكن أن يهدأ لهم بال اذا رأوا السودان منفصلا عنهم وهم سيذكرون دائماً كلمة وزيرهم شريف باشا « اذا تركنا السودان فالسودان لن يتركنا » ، وكلمة المستشار الانكليزي لوزارة الاشغال المصرية « السودان الزم لمصر من الاسكندرية » واذا صح أن مرت فترات من الوقت هدأت فيها عواصف السياسة لسبب من الاسباب واضطر المصريون للرضى عن

حالهم سواء لعدم ملاءمة الوقت اولأن القادة الظاهرين منهم قدتمتعت اطماعهم بما نالوا من المناصب والجاه والمصالح لانفسهم ولذويهم فان هذه الفترات لا يمكن أن تدوم في حياة الأمم مادام ثمت مايدعو الى ترعرع الامور فيها كذلك لا يمكن أن يغيب عن فطنة السياسة البريطانية و بعد نظرها أن السودان ومصر بينهما فضلا عن رابطة النيل الطبيعية رابطة اللغة والعقيدة والجوار وهذه روابط لا وجود لها عند أي من الدول الاخرى المتاخمة للسودان وطبعي مع تقدم الرقي والحضارة في السودان أن تزداد عقدة هذه الروابط متانة وأن ينظر السودان لمصر بمثل العطف الذي تنظر مصر به للسودان ويومئذ لا يترك السودان مصر إذا هي تركته ولا يمكن أن يغيب عن فطنة السياسة البريطانية و بعد نظرها أخيرا أن فترات القلق اصلح الفترات للشعوذة السياسية وابعدها عن أن تكون الظرف الملائم للاتفاق الودي المعقول فاذا كان ذلك كله صحيحاً كان الوقت الحاضر انسب الاوقات للتفكير في اتحاد مصر والسودان على المبادىء السابق ذكرها ذلك بأنه وقت سكينة وهدوء فكل اتفاق يتم فيه يتم بعد روية وتفكير و يكون منبعثاً عن اعتقاد صحيح بصلاحه

ولقد اكدت لي اقامتي القصيرة بالسودان صحة هذا الرأي الذي عرضت فكما ان السودانيين بحاجة الى أن يقوموا بالعمل لتتطور نظمهم الحاضرة في اتجاه يتفق وسيرة العالم الحاضرة — هـذه

السيرة التي لا مفر من وصولها الى اتحاد مشابهة كبيرة بين نظم الحكم في مختلف دول العالم بسبب ما تقرب المواصلات الدول بعضها من بعض — فهم بحاجة في هذا السبيل الى معونة صادقة مخلصة ليست لها أية غاية سياسية وإذا كان وجود الانكليز للاشراف على تقدم زراعة القطن في سهل الجزيرة من شأنه أن يعطيهم في ذلك مثلا صالحاً فأن الفارق بينهم وبين الانكليز في اللغة والجنس والعادات والدين يحملهم بحاجة الى المصري القريب منهم في ذلك كله والذي درس الانكليز عن قرب ، والذي لا يرجو بعد وضع قواعد الاتحاد بين مصر والسودان ، الا أن يمهد السبيل لبقاء هذا الاتحاد وثيقاً متيناً بعيداً عن العثرات والاضطرابات

ولعل هذا الرأي يروق الاطراف المختلفة ذوات المصلحة فيه ولعل الطبعة الثانية لهذا الكتاب — اذا قدر له أن يطبع طبعة ثانية — تضع الى جانب هذا الفصل الاخير من فصوله صورة الاتفاق الذي يتم تأييداً لهذا الرأي



خاتمة

ارجو أن أكون قد وفقت في الصحف القليلة التي يحتويها هذا الكتاب الى نقل صورة صحيحة مما رأيت أثناء العشرة الايام التي قضيت بالسودان، كما أرجو أن تكون الآراء التي سنحت لي في مختلف الشؤون متفقة وما تمليه الرغائب الانسانية السامية التي جاهدت للدعوة الى تحقيقها غير متأثر بأي هوى من اهواء السياسة. ولهذه المناسبة أرى واجباً علي أن اصرح أن هذه الآراء شخصية بحتة لا تعبر الا عما جال بخاطري كفرد من افراد المصريين. فهي لا تعبر عن وجهة نظر جماعة من الجماعات أو حزب من الاحزاب. بل هي قد تلقى من كثيرين في مصر وفي السودان وفي انكلترا معارضة شديدة، كما ارجو أن تلقى من كثيرين كذلك في مصر وفي السودان وفي انكلترا تعضيداً لها وتأييداً وانما دفعني الى ابدائها بالصراحة التي أبديتها بها حرصي على تقدم السودان ورفاهيته وعلى طمأنينة مصر ومصالح انكلترا وسلام العالم، وعلى الحق الذي يجب أن يكون له السؤدد دائما في النهاية

وكنت ارجو أن يظهر هذا الكتاب من أشهر ماضية فقد بدئ في طبعه في شهر مارس سنة ١٩٢٦ لكن ظروفاً طرأت على

منذ شهر ابريل حالت بيني و بين الاستمرار في كتابة الفصول اللاحقة لفصل أم درمان . ولم اتمكن من العود لتحرير سائر الفصول وتقديمها للطبع الا منذ نوفمبر الماضي

ومنذ نوفمبر تراكم علي من شؤون الحيـاة ما جعلني اسير بطء شديد على أن هذا البطء كانت له مزايا الأناة في تقدير الوقائع والآراء وذلك ما يجعلني غير آسف عليه

القاهرة في ٣ يناير سنة ١٩٢٧

فهرس

ص	
٥	خواطر حمار (مصور للاولاد والرجال) ترجمة حسين الجمل
١	مسارح الأذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة) تأليف خليل بيدس
١	الحضارة المصرية القديمة (لغوستاف لوبون) ترجمة صادق رستم
٨	مقدمة الحضارات الاولى » » » » »
٢	المرأة وفلسفة التناسليات (مصوّر) تأليف الدكتور فخري
٢٥	» » » » محمد نقاش
٣	الامراض التناسلية وعلاجها وطرق الوقاية منها » »
١	رسائل غرام جديدة (مزين بصور) تأليف سليم عبد الاحد
١	الغربال ، بقلم ميخائيل نعيمه عضو الرابطة القلمية بامريكا
٢٥	علم الاجتماع (الجزء الاول في حياة الهيئة الاجتماعية) تأليف
٢٥	» » (الجزء الثاني في تطور الهيئة الاجتماعية) نقولا حداد
١	حصاد الهشيم (مصور)تأليف الاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني
١	مختارات سلامه موسى (تأليف الكاتب الاجتماعي الشهير)
١٠	نظرية التطور واصل الانسان تأليف الاستاذ سلامه موسى
١٥	أسرار الحياة الزوجية ترجمة نقولا حداد
١٥	الحب والزواج تأليف » »
١٥	في أوقات الفراغ تأليف الدكتور محمد حسين هيكل بك
٣	كتاب الحقوق الوطنية تأليف فرنسيس ميخائيل
٢٠	روح الاشتراكية تأليف غوستاف لوبون وترجمة محمد عادل زعيتر

ص

١ الآراء والمعتقدات تأليف غوستاف لوبون وترجمة محمد عادل زعيتر
٨ رواية الانتقام العذب ترجمة اسعد خليل داغر
١ خاتمة المهدي ، أو استعادة السودان (نشرت تباعًا في الاهرام)
٢ رواية باردليان (٣ اجزاء كبيرة) ترجمة طانيوس عبده
٢ « الاميرة فوستا (جزآن كبيران) « « «
١٦ « كابيتان (جزآن كبيران) « « «
١ « فارس الملك « « «
١٦ « الساحر العظيم « « «
٥ « روكامبول (عن الجزء الواحد) « « «
١٥ « فلمبرج (جزآن كبيران) « « «
٦ « النفس الحائرة ، تأليف فريد افندي حبيش
١٥ الدنيا في اميركا تأليف الاستاذ امين نقطر
١٢ المراجعات تأليف الاستاذ عباس محمود العقاد
٢٠ـ٢٥ اناتول فرانس في مباذله ، تأليف سعادة الامير شكيب ارسلان
٢ ملتقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء تأليف اسماعيل بك مظهر
٨ التعليم والصحة تأليف الدكتور محمد بك عبد الحميد
١ المرأة الحديثة وكيف نسوسها بقلم الاستاذ عبد الله حسين
٥ مركز المرأة ترجمة الاستاذ سليم عقاد
١ عشرة أيام في السودان ، تأليف الدكتور محمد حسين هيكل بك

أن يصرح برأيه فى الدين وفى الاشتراكية وفي المرأة ، وفى مثل هذه الشئون الاجتماعية ، غير متعمد في كل ما يكتبه اظهار براعة أو التباهي بمهارة ، وانما غايته التي لا يحيد عنها هى فائدة القارىء وليست هذه بالميزة القليلة القيمة في وقت نرى فيه عدداً غير قليل من كتابنا لا يعني من وراء كتابته الا أن يقول عنه الناس كما يقولون عن البهلوان « ما أبرعه ! » فى حين كان يجب أن يقولوا « ما أنفعه »

ولسنا نشك فى أننا نخدم جميع قراء العربية بجمع هذه المقالات النفيسة ، وغيرها مما لم ينشر للآن ، حتى يتيسر للجيل الجديد قراءتها والانتفاع بها دون أن يحتاج الى الكد فى البحث عنها فى متفرق المجلات والصحف — ثمنه ١٠ قروش مصريه
